



أو فيد في المنفى

ترجمة: سعدي يوسف

اهداءات ٢٠٠٣

أسرة أ.د/رمزى دكي

القاهرة

حياة متخيّلة

ديفيد معلوف

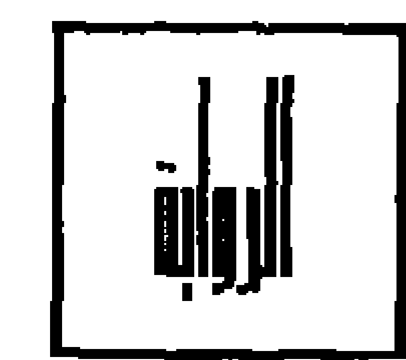
حياة متخيّلة

أوفيد في المنفى

ترجمة: سعدي يوسف



منشورات





Author :David Malouf
Title :An Imaginary Life
Translator: Saadi Yousif
Al- Mada : Publishing Company
Second Edition 1998
Copyright © Al-Mada

اسم المؤلف : ديفيد معلوف
عنوان الكتاب : حياة متخيّلة
ترجمة : سعدي يوسف
الناشر : دار المدى للثقافة والنشر
الطبعة الثانية : ١٩٩٨
الحقوق محفوظة

دار للثقافة والنشر

سوريا - دمشق صندوق بريد : ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦
تلفون : ٧٧٧٢٠١٩ - ٧٧٧٦٨٦٤ - فاكس : ٧٧٧٣٩٩٢
بيروت - لبنان صندوق بريد : ٣١٨١ - ١١ فاكس : ٤٢٦٢٥٢ - ٩٦١١

Al Mada : Publishing Company F.K.A.
Nicosia - Cyprus , P.O.Box . : 7025
Damascus - Syria , P.O.Box . : 8272 or 7366 . Tel: 7776864 , Fax: 7773992
P.O. Box : 11 - 3181 , Beirut - Lebanon, Fax : 9611- 426252

All rights reserved. No parts of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system , or transmitted in any form or by any means , electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior permission, in writing, of the publisher.

إ   كريستوفر

ليس بمقدوري أن أقول متى رأيت الطفل أولَ مرة . أنا أرى نفسي - ربما كنت في الثالثة أو الرابعة - ألعب تحت شجيرات الزيتون عند طرف مزرعتنا ، على مقربة يسيرة من راعي الماعز ، ينعس مستنداً إلى جذع زيتونة ، وقد مال رأسه إلى الوراء ، ليكشف خطّ فكّه الأسود وعصبَ رقبته القوية ، والفم الأسود الفاغر . النحل يتنقل بين العشب . الهواء يتألق . يجب أن يكون الوقت صيفاً في أواخره . في العشب كانت شقائق نعمان تميل بها الريح . تيسٌ أسود كان منتصباً على قائمتيه الخلفيتين ليبلغ وُريقات الكرْم .

الطفل هناك . أنا في الثالثة أو الرابعة من عمري . الصيف في أواخره . إنه الربيع . أنا في السادسة . أنا في الثامنة . والطفل في السن ذاتها دائماً . أنا والطفل نتكلم ، بلغة من صنعنا . شقيقي الذي يكبرني بعام ، لا يراه ، حتى حين يكون بيننا ، جِدّ قريب .

إنه ولدٌ متوحش .

لقد سمعت رعاة الماعز يتحدثون عن ولد متوحش ، ولست أدري إن كانوا يعنون هذا أو آخر ، وأنا ، بالطبع لم أعترف لهم ، أو لأي شخص .

بأني أعرفه . الولد المتوحش الذي يتحدثون عنه يحيا بين الذئاب ، في الوهاد إلى الشرق ، وراء مزارع ودارات وادينا المرويّ جيداً .

الذئاب هناك حقاً . سمعت حكايات عن إغارتها على المراعي القصية ، وأظنني سمعت مرةً أحد هذه الذئاب يعوي في الثلج . أو ربما كان الطفل . وقد رأيت رأس ذئب جاء به أحد الصيادين ليعلقه في حظيرته تحذيراً . كان أغبر إلا أن مرآه لم يكن شديد الضراوة ، بالرغم من انكماش اللحم الذي أبرز الفك ذا الأنياب . فكرت بالطفل ، وكيف يجب أن يكون في طبيعة الذئاب شيءٌ رفيق يجمعها بنوعنا نحن البشر ، وإلا كيف استطاع الطفل العيش بينها ؟ المخيف كان الطريقة التي قطع بها الرأس ، وحبال الدم الأسود تلك المتدلية منه ، والفرو عند الرقبة الممستد بالدم . فيما بعد ، سمعت ربما من رعاة الماعز ثانيةً ، أن في طبعنا شيئاً من الذئاب ، وأن في طبع الذئاب شيئاً منّا ، إذ مازال ثمت رجالٌ ، يمكن أن يحوّلوا أنفسهم ، في منازل معينة من القمر ، إلى ذئاب . إنهم يغلقون ذهنهم البشري مثل قبضة ، وحين يفتحونها ثانيةً تكون كفّاً ذات براثن ذئب . الجمجمة تنتأ ، والفكّ يبرز ليكون خطْماً . الشعر يخشوشن على امتداد العمود الفقري ، وينمو خشناً على البطن . والجسم يتهدل فيكون على أربع ، والصوت يَغلُظ . إنه القمر يُسيّرهم . آمنتُ بهذه الأشياء أيّامَها ، وتساءلتُ : أكان الطفل ولداً ذئباً ؟ أكان أولئك الرجالُ الذئابُ الذين يعيشون بيننا سراً ، مغيّرين أنفسهم بألم ، حسب أوامر القمر ، أكان أولئك الرجال أطفالاً قُبضَ عليهم في البراري ، وجيء بهم بيننا ، ليتكيفوا وطرائق الناس ؟

بعد فترة ، حين شرع جسدي يتغير ، واكتشفتُ أولى علائم الرجولة فيّ ، تركني الطفل . ولم يَعُد إلى الظهور ، مع أني رأيته كثيراً في ما يرى النائم ، تلك السنوات المبكرة ، وظللت أحلم به مذّاك . نسيتُ اللغة التي استعملناها ، وأعتقد أننا لم يعد بمقدورنا أن نتفاهم لو ظهر ثانيةً . أكانت

عنده رسالة لي آنذاك ؟ لو كان الأمر هكذا فأعتقدُ أنه فشل في إبلاغها . أو أنه أبلغني الرسالة لكنها انسلّتْ من ذهني . أو أن اللغة التي استعملَها ، مهما كانت المناسبة ، قد تجاوزت فهمي ، ولم تمكن ترجمتُها في لغة الكلام اليومي . أعتقد (أظنني اعتقدتُ دائماً) أنه سيعود ، لكن في أي هيأة ؟ هل سيعود ، كما كان ، طفلاً ؟ أو رجلاً في مثل سنّي ؟ أو ذئباً ؟ أو أن لديه القدرة على اتخاذ هيئات أخرى أيضاً ؟ أتَراه عاد إليّ ، فعلاً ، في هيأة هي من التواضع والعاديّة بحيث أخفقتُ في إدراك حضوره ؟

أنا لا أخبر أحداً بهذا ، فأنا طوال كل تلك السنوات السالفة كنت حريصاً على ألاّ أعترف لأحد بأنه كان هناك ـ حتى شقيقي الذي هو في مثل سني وكان بإمكانه أن يفهم . تحت شكوكي كلها ، هذه البذرة من الإيمان .



وحشة هذا المكان هي التي تملأ ذهني ، يوماً بعد يوم ، بمنظوراتها . خطٌ من الجروف ، منحرف إزاء السماء ، والبحر رصاصيّ بعده . وإلى الغرب والجنوب ، جبال ، مكدسة تحت الغيم . إلى الشمال ، وراء مصبّ النهر المنْقعِ ، سهوب عشبية خاوية ، تمتد إلى القطب .

لثمانية شهور في العام يتجمد العالم . وتهب أنفاسُ لعنة قطبية على الأرض . الأرض تبيضُّ بين ليلة وضحاها . وحين يرتخي الثلج أخيراً ، ويذوب ، يُوحلُ السهل كله وينتن ، وتغزونا الحشرات ، والضباب الساخن ينفث بخاراً بين الأعشاب المتطاولة . لم أجد هنا شجرة ترتفع بين الشجيرات الرمادية البنية الخفيضة . لا زهرة . لا ثمرة . إننا في نهايات الأرض . حتى الأنواع العليا من الخضروات لم تبلغنا بعدُ ، ونحن على مبعدة قرون من فكرة بستان أو حديقة للمتعة حسبُ . البلاد تمتد مفتوحة من كل جانب ، مسورة إزاء الغرب والجنوب ، مستوية إزاء الشمال ، والشمال الشرقي ، مع نظرة إلى اللانهاية .

الإنحراف الحاد للجروف يؤدي إلى السماء . بطائح النهر ، شجْراء الإفسنتين ، السهوب العشبية فيما بعد ، كلها يؤدي إلى سماء معلقة ، خفيضة ، فوقنا ، مثقلة بالثلج ، أو خاوية على مدى ما تراه العين ، أو يتخيله الذهن ، سماء بلا غيوم ، بلا أجنحة .

لكني أصفُ حالة ذهنية ، لا مكاناً .

أنا ، منفيُ ، هنا .

تتألف القرية المسماة «تومس» من مائة كوخ أقيمت بالأغصان المضفورة والطين ، سقوفها قشٌ ، وأرضيّاتها طينٌ مضروبٌ مغطّى بالأسل . في كل كوخ ساحةٌ مسورةٌ ، وزريبة تأوي إليها الحيوانات ، وتُربَط فيها شتاء . على الزريبة غرفة واحدة واسعة ، ننام فيها ونأكل حين الشتاء ، على مصاطب خشب تحتها طبقة من الخُثّ بطيء الاحتراق . في الصيف تُفتح بقية البيت ، وتكون لي غرفة خاصة ، ذات طاولة منخفضة للكتابة ، وحَشيّة قشٍ نظيف . حياتي هنا عُرّيتْ إلى أبسط الشروط . أنا أعيش هنا مع شيخ القرية المكلّف بمراقبتي ، وربما بالإجهاز عليّ ، حين يحلُّ الوقت . أهل البيت هم شيخ القرية ، وأمُّه (عجوز في حوالي الثمانين) ، وكنّتُه وطفلها . إنهم أناسٌ خشنون ، طيبون ، والشيخ مع أنه بربري ، يعاملني باحترام ما ، نظراً لمنصبي السابق . وقد أُهمَل ، وأُترَك لشأني ، أتجول في القرية ، أو أتمشى في الحقول حتى المدى الآمن . وليست بهم حاجةٌ إلى أن يخشوا فراري . إذ ليس لي وجودٌ رسميّ ، في كل العالم المعروف ، حيث يحكم الإمبراطور . بعد هذا المخفر المتقدم الأخير : المجهول . حتى لو افترضتُ أن لديّ القوة على الفرار في وضعي الحاضر ، فأين تراني سأذهب ؟

أتمشى حول قلعة الطين الصغيرة ، أو أتجوّل في الشّجْراء ، لكني لا أمضي ، البتة ، أبعد من مرأى الأسوار ، ففي كل وقت ، يمكن أن تتعرض القرية لهجوم المتوحشين الذين يسكنون السهوب العشبية إلى الشمال ، والذين يأتون في فترات منتظمة ، مجموعات عاوية ، ليسرقوا أنعامنا ، أو يحرقوا الحقول القصيّة . القرية كلها معسكرٌ مسلّح . وأنا المرء الأقلّ شأناً هنا - مخبولٌ ، عجوز مضحك ، عجيب ، مترقرق الدمع ، لا يفهم شيئاً ، ولا يستطيع أن يقول شيئاً ، كما تبدو عاداته لهؤلاء الناس الصارمين ، متنافية بصورة غير

معقولة ، مع حقائق حياتنا اليومية . إنهم يطعمونني ، ويهيئون لي ركناً أنام فيه . هم ليسوا غير مهذبين . لكن لا أحد في «توميس» ينطق بلغتي ، والآن ، وبعد حوالي العام ، لم أسمع كلمةً واحدة من لغتي ، حتى أمسيتُ أبكم . إنني أتواصلُ ، مثل طفل ، بالغماغم والإشارات . أنا أشيرُ ، أرفعُ حاجبَيّ مستفهماً ، وتتفجر دموع فرحي لو أن أحداً ـ حتى لو كان طفلاً يفهم ما أحاول قوله .

في الخلاء ، أدأبُ على الصراخ ، وأُحدّثُ نفسي ، لأنني ببساطة ، أريد أن أحتفظ بالكلمات في رأسي ، أو أن أخرجَها منه ؛ أيامي في هذا المكان ، ولياليّ ، رهيبةٌ ، يعجز عنها الوصف . النهار كلّه أشرد في حلم ، معزولاً عن عالم البشر ، كأني من طينة أخرى . في الليل ، أكتشفُ وأنا نائمٌ ، ما حجبه عني ضوء النهار البسيط : أن الجانب المظلم في كل شيء هنا ، وأكثر من ذلك ، المشهد نفسه حين تهبط عليه ظلال الليل ، هو صفحةٌ واسعةٌ أعجزُ عن حلّ لغتها ، وعن ترجمة رسالتها إليّ . وحلماً بعد حلم ، أغامُر بعيداً ، وراء الحقول الحصيدة ، وعبر السهل الموحش الذي يتلوها ، في الأراضي العشبية ، خلف طرف عالمنا . الريح تهبُّ عليها ، فتجيش مثل البحر ، هسهسةً وأنيناً ، والهواء مليء بأجنحة الهوام . أركعُ على ركبتيّ ، وأشرع أحفر الأرض بأظافري الطويلة . أحياناً تأتي الذئاب ، وتنبش بمخالبها الأرضَ إلى جانبي ، وهي تعوي . نحن نحفر معاً ، وهي لا تعيرني من انتباهها أكثر مما تعيره لشبح . لكنني أعرف أني سأكتشف قبلها ما تبحث عنه ، مهما كان ، وإلا ضعتُ . هكذا أحفر ، أقوى ، وأسرع . وضوء القمر يسقط دبقاً عليّ . أنا عاجزٌ عن أن أُسرّ لنفسي : هذا حلم .

أنا أعرف ما نبحث عنه . إنه قبر الشاعر أوفيد ـ ببليوس أوفيديوس ناسو ، رومانيّ من الفرسان ، شاعر . في هذا المكان الموحش كله . لا أحد يعرف أين يثوي .

سُمِّي ناسو بسبب الأنف .

أنا أكلّمك ، أيها القارئ ، باعتبارك تعيش في قرن آخر ، فهذه الرسالة لن أرسلها أبداً . إنها ليست موجهة إلى زوجتي أو إلى محاميَّ في روما ، ولا حتى للإمبراطور ، بل هي موجهة إليك ، أيها الصديق المجهول ، غير الموجود في زمن كتابتي هذا ، والذي لا أستطيع أن أتخيل وجهه ، وحتى هيأته . أبمقدور إمرئٍ أن يتخيل وجه إله ؟ إذ يجب ، أكيداً ، وأنت في بُعدك العظيم عنا ، أن تكون ـ الإلهُ الذي شرع يحرِّك أعماقي ، ليستجمع كينونته منا ، وسوف يستجمعها ، في الطرف الآخر من العصر العظيم الذي هزّ عالمنا بزلازله ، قد أفلح أخيراً ، وبدأ يتكوّن .

أنا ألقي برسالتي إلى القرون ، غير متأكد في أي مشهد من الأشياء غير المألوفة سوف ترى النور ، وبأي عينين ستقرأها . هل اللاتينية لاتزال معروفة لديك ؟ أنا أدفن الرسالة عميقاً في الجليد ، في أحد القبور التي ختم على أحجارها الجليدُ الذي لن يذوب ، وحيث لم يخاطر ، البتة ، واحدٌ من عالمنا الرومانيّ . فقط ، بعد ألف سنة ، حين تكون الإمبراطورية سقطت ، ولم تعد لديها سلطة إخراسنا ، سوف تصل هذه الرسالة سليمةً بين يديك . أنا الشاعر أوفيد ـ ولدت على الطرف بين منزلين من دائرة البروج ، حيث الأسماك تسحبه في اتجاهاتها المعاكسة ، ليهبط أسفل الأفق ، والكبش يصعد ، بين عصرين ، الأعوامِ الألف للآلهة القدامى التي ترتعد لنهايته ، والعهد الجديد الذي سيصل إلى أزمته في نقطة بعيدة من المستقبل أعجزُ عن إدراكها ، وحيث تجلس أنت ، أيها القارئ ، في غرفة مضاءة لا أميّزُ أثاثها ، أو في الضوء المتأخر لبستانٍ أجهل أزهاره ، لتترجم هذه الرسالة ـ وبأي صعوبة ؟ ـ إلى لغتك .

أسمعت باسمي ؟ أوفيد ؟ أمازلتُ معروفاً ؟ هل أفلت أحد سطور كتابتي

من منع كتبي في المكتبات ، ومن إحراقها في الساحة العامة ، ومن نفيي عن اللغة اللاتينية ؟

هل خبّأ معجبٌ سريٌّ إحدى قصائدي فأحتفظَ بها ، أو حفظَها غيباً ؟ أمازالت أبياتي تنتقل سراً ، في مكان ما ، من فم إلى فم ؟ هل أنسلّ أحد تعابيري ، بدون انتباه السلطات ، مقتطفاً في قصيدة شاعر آخر ، أو في رسالة ؟ أو في قولٍ سائرٍ لا يمكن أن يمحى الآن ؟

هل بقيتُ حيّاً ؟

أكتب هذا ، في ضوء شمعة . هذه الغرفةُ التي بلا نافذة ، مظلمة كالليل . عناكب صغيرة وحشرات أخرى تعيش في سقف القش ، وتزحف على الأرضية ، وتسقط في شَعرك ، أو في صحن حسائك وأنت تأكل ، وثنايا ثيابك تعجُّ بها . أنت تعتاد هذا الأمر بعد فترة .

لم تكن لي ، البتة ، صلةٌ بالمخلوقات قبل هذه ، حتى ولا الكلاب أو القطط . الآن أجد فيها شيئاً غريباً قابلاً للعلاقة . فهي ، مثلي ، غير قادرة على الكلام . إنها تتحرك بين الشقوق ، في فجوات حيواتنا ، وهي غير ضارّة . حتى العناكب ، هذه المخلوقات البائسة . أتساءل إن كانت لديها لغة خاصة ، كي أحاول أن أتعلمها . إنه لأمرٌ سهلٌ مثل اتقان اللغة البربرية الحلْقية التي ينطق بها جيراني .

بدأت أتبينُ بعض الأصوات في هذه اللغة . لكن مجرد سماعي الشيخَ يصيح في الساحة بحفيده ، أو يتمتم في الأصيل للمرأة الشابة ، يكاد يجعلني أُجَنُّ ، أحياناً . الأمر مثل محاولتك تذكُّرَ شيءٍ نسيتَه ، يتّقد على حدّ ذهنك ، لكنه يرفض أن يكشف نفسه . أشعر أنني مقطوع كواحد من هذه العناكب ، أو مثل فأر يترجّح على عارضة سقف وهو يسمع الشاعر يقرأ . لكأنني زلقتُ خطوةً إلى الوراء في نظام الأشياء ، أو أنني مُسختُ ،

بلعنة ساحرةٍ ، إلى نوعٍ أدنى . بالطبع ، لا ساحرة فعلت بي هذا . كل ما أستثير هو سلطة القانون . لقد أُبعدْتُ ، بفعل أعلى سلطة معروفة ، لأكون ، حقاً ، في نظامٍ آخر لكائنات ، أولئك الذين لم يصعدوا ، عبر ثقب في رأسهم ، ليكونوا بشراً مكتملين ، أولئك الذين لم يلجوا ، بعدُ ، في ما نسميه مجتمعاً ، فيصبحوا رومانيين تحت القانون .

لكنهم ، حتى هكذا ، من نوعنا ، هؤلاء الجيتيين . أنصتُ اليهم وهم يتكلمون . الأصوات بربرية ، وتحنُّ روحي لصفاءات لغتنا اللاتينية ، تلك اللغة الكاملة ، التي يمكن أن يعبّر بها عن الأشياء كلها ، حتى عن المنفى . أنا أنصتُ ، ويهزُّني أكثر أنني أميّزُ النغمات . أعرف أن هذا النغم رقّةٌ ، وهذا أسفٌ ، وهذا غضب . هَذا نغم شيخٍ يهدىء طفلاً يعثر ، يبكي ، يحكي عن أوجاعه ، ويجب أن يؤخذ بيده عائداً ، كي يسمي الحجرَ الأسماءَ التي قد يتعرف عليها المرء في طفولته الأبعد : «الشرير ، أيها الحجر الشرير! » .

أما الآن ، فثمت العناكب . أبمقدوري أن أُدوزن أذنيّ لكلامها أيضاً ؟ ما دامت هي كذلك يجب أن تتواصل . ربما أبداً ، أكتبُ ثانيةً ، بلغة العناكب . «مَسخُ الكائنات الجديد للشاعر أوفيد في منفاه ، بلغة العناكب» .

أحياناً ، وأنا أتجول على غير هدى ، أتوقفُ لأراقب النسوة يعملن في ساحة الدار ، يفرزن الحبوب ويطحنّها . إحداهن تصّعد نظرها ، وتعبس ، أو تبتسم ، من عالم ما ، خاصّ بها ، أعجزُ عن لمسه . ثمت بذور عدّة : ذهبية ، صفراء مخضرّة ، زرقاء . أحزرُ ما يمكن أن يكون بعضها ، لكني لا أستعيد أسماءها . أنا أعرف ، بالطبع ، أسماء البذور ، لكوني استخدمتُها في قصائدي لجمالية الصوت نفسه : كزبرة . هال . لكن ليس لديّ فكرة عن أشكالها ، باستثناء المعروف الشائع منها . مرةً أو مرتين ، أخذت إحدى

البذور بسبّابتي ، ووضعتُها في راحتي ، بينما كانت النسوة المندهشات ينظرن إليّ . وحدث مرةً ، أن ضحكت صُغراهنّ ونطقت بكلمة : كورشكا . نظرتُ الى البذرة ، وأومأتْ برأسها ، كأنني طفل ، وقالت ثانيةً وهي تدوِّر شفتيها بصورة مبالغة ، كور ـ شكا! ، ثم وضعتْ إحدى البذور على لسانها ، وقضمتْها . فعلتُ الشيء نفسه ، لكني لم أميِّز الطعم . وحدها ، وبدون المائة من الأعشاب والأفاويه التي يمكن أن تدخل معها في مطبخنا الروماني ، لم تأتني البذرة بالصدمة التي تجعل ذائقتي تميّزها ، ولم تفلح في أن تجيء باسمٍ لها في ذهني . هكذا أعرف كلمةَ هذه البذرة الآن ، وطعمها ، وشكلها ، ولونها ، لكني لا أستطيع أن أترجمها عائداً بها إلى تجربتي الخاصة .

أسيكون كل شيء هكذا ، منذ الآن ؟ أعليّ أن أتعلم كل شيء ، من جديد ، مثل طفل ؟ أكتشف العالم كما يفعل طفلٌ صغير ، عبر الحواسّ ، لكن مع حرمان الأشياء كلها من السحر الخاص لأسمائها في لغتي ؟

ليس بالإمكان قولُ شيء عن قريتنا سوى أن فيها نحو مائة كوخ . الأزقة الضيقة بين هذه الأكواخ ، طينية . خنازير قليلة تتمرغ فيها ، أو بضع وزّات ، والطين مكوّنٌ من جزء واحد تراب ، والأجزاء التسعة الباقية هي نفاياتُ موطوءة لهذه المخلوقات ، منذ ألف جيل . أطفال عراة يخرجون من بيوتهم بعد المطر ليجلسوا في بُرَك مع الوزّ ، أو ليطاردوا الخنازير بين البيوت ، صارخين ، حتى أن أذنيّ لا تميزان صراخهم عن قباع الخنازير ، والنسوة يجمعهن الحبوب ويَدْققنها ، وبين السيقان تنمو أعشاب ونباتات أخرى يجب أن تفرز باليد ، من قمح ، وشوفان بري وشعير . وليس لديهم شكلٌ للزراعة آخر .

الآن ، منتصف الصيف . بطائح النهر ترسل أبخرتها ، مع طنين

الذباب . لكن ، بعد أسابيع قليلة ستأتينا أوائل الشتاء . رياح الشمال تهبّ عبر النهر ، من السهوب السيثية ، تبسط القصبَ ، وتسوط الماءَ . الرجال ، من الآن في الخارج ، يقطعون كتلاً من الخُثّ سوف يكدِّسونها أكداساً يتّقون بها البرد . النساء يملأن الأهراء بالحبوب ولحم الخنزير المدخن الذي يعلقنه من عوارض السقف . ما أن يتجمد النهر حتى يكون علينا أن نظل متأهبين خلف الحاجز الدفاعي ، ليل نهار . وليل نهار يظل الرجال في الحراسة . النهر ، حامينا اليوم . لكنه بعد شهرين من الآن سوف يكون جسراً جليدياً ، ولسوف تندفع القبائل من الشمال عبره ، ناهبةً ، مغتصبة ، مشعلة النيران . إن أناسي هنا ، هم متوحشون نسبياً . أما البرابرة الحقيقيون فعليّ أن أراهم فيما بعد . لقد حلمت بهم فقط .

في إحدى الليالي حلمت مؤخراً ، بأنني مشيت تحت ضوء القمر ، في الطريق بين الأكواخ ، أسمع الخنانيص يقبعون خلفي ، وأسمع غناء عظامهم الممصوصة ، حتى بلغت ضوء المستنقعات الغريب . كان القمر يعتلي القصب ، وقد نصّف وجهَهُ خطٌ من الغيوم مثل عين مغمضة ـ عيني ، نصف مستيقظة ، ومفتوحة مثل عين البوم ، نصف مغمضة في العتمة .

سرت على النهر ، الذي دوّم مثل الدخان تحتي ، وكنتُ ضوءَ قمر . بلغت الضفة الأخرى . سهلٌ يمتد بعيداً ، منبسطاً ، بلا ملامح ، كل شيء كان غباراً يدوّم تحتي ، ومن الغبار لم يتحرك مخلوق ، حتى ولا أفعى . كان المشهد أصلياً .

وفجأةً ، ليس من غبار السهل ، ولكن من السماء المدوِّمة ، جاء حشدٌ من الأشكال ، يندفع ، مرعداً ، نحوي ـ رجال ، نعم ، خيول ، نعم ، وفكرت في مالا أؤمن به ، وأعرف أنه يعود فقط الى عالم خرافاتنا ، حيث وجدت نفسي : القناطير . لكن هولاء لم يكونوا المخلوقات المروّضة لأساطيرنا الرعوية . كانوا ضخاماً ، وكانت رهيبة أنفاسُ مناخيرهم ، ووقع حوافرهم وضوء

خواصرهم المتموج . عرفت أن هولاء ، كانوا آلهة . وبهم أيضاً ، لا أؤمن .

وقفت صامتاً وسط السهل ، وبدأوا يدورون حولي في دوائر ضخمة ، مطلقين لا صرخات خبثٍ ، كما ظننت ، بل صرخات رثاء . وكأنهم يقولون لي . «أدخلونا في عالمكم . دعونا نعبر النهر إلى امبراطوريتكم . إقبلونا في حيواتكم . آمنوا بنا . آمنوا» .

وبطيئاً توقّفوا .

توقفوا .

يتنفسون .

وحلّ صمتٌ وسيع كالسهل ، وسمعتُ دقّات قلبي ، مثل أخفت صدىً لحوافرهم ، وأنفاسي مثل أنفاسهم ، تمزّق صدري . أحد هذه المخلوقات ، ومن قوى الظلال التي أغلقت الأفق كله فوقي ، تقدّم بطيئاً إليّ ، واضعاً حوافره ، بلطف ، في التراب ، وتوقّفَ على مبعدة قدم مني ، بحيث أحسستُ بأنفاسه ، ودفئه ، وحسبتُ أني سمعتُ في دفق أنفاسه صوتاً ذا مقاطع أقدرُ على تفسيرها . ثانيةً ، كان النغم ما تعرفتُ عليه . وشرعتُ ، كأني بلا لغة لي ، أنصتُ إلى معنى آخر .

مددتُ يدي ، ولمستُه .

وانبثق شيء من أعماق رقادي ، إلى حد أننا وقفنا ، الواحد يواجه الآخر ، مثل انعكاس يصعد الى سطح المرآة . إنه هناك ، غريبٌ ، خارج عني . ومن داخلي ، خرج شيء كان انعكاسَه ، كي يلقاه .

أفقتُ ، صرخت . والكلمة التي أطلقتُها لم تكن من لغتي .

حاولت ، مُذّاك أن أتذكر تلك الكلمة ، لكن الصوت كان غار في رقادي . لو استطعتُ أن أتذكر ذلك الصوت ثانية ، فأظنني سأعرف ما كنت سميّته ، ما الذي واجهتُه . وما ذلك الذي هناك ، ينتظر أن يستقبلني .

لُقِّبتُ «ناسو» بسبب الأنف .

لست أدري ما الذي كان يفعل جَدّي بأنفه . أمّا أنا ، فقد كان أنفي للأخبار ـ أخبار المجتمع ، الأخبار التي تنتشر .

أنا في الأساس مخلوق اجتماعي . بعض الشعراء ، فرجيل مثلاً ، له أذن ، ممتازة في كل شيء . أنا ، لديّ أنف . والأنوف سياسة ، حتى لو وضعتَها في أكثر الأماكن خصوصيةً . قد تكون أكثر سياسيةً آنذاك . الأنوف تسبب لك المتاعب . بإمكاني أن أشمّ جيداً ما يريد كل واحد أن يسمعه ، ويبدأ يفكر في ما سمع ، ويستمر في التفكير أيضاً ، بمجرد أن أقوله .

كنا في سلام ، بعد قرن من الحرب التي دمّرت فيها أُسرٌ كاملةٌ أسراً أخرى ، باسم الوطنية . وأنا دخلتُ بالضبط ، في عصر من «اللخبطة» المتسامحة ، والصفاقة الماهرة ، حين بدا ، أننا جميعاً ، قد تحررنا أخيراً من أغلالنا لندخل في تنوير كان من العظمة بحيث لم تعد ، ثمتَ ، أي حاجة للإيمان .

ومن الكون كانت أخباري تقول : «الآلهة لم تمُت تماماً ، ما دامت أسماؤها على شفاهنا كلها ـ دع عنك النصب المكرّسة لها التي قدّمها يومياً زعيمُنا المحبوب . لكن الآلهة أيضاً توقفت عن أن تكون جادّة ، ودخلتْ عصر اللعب . وقد هجرت الأماكن المقدسة وسكنت الخرافات التي لا تستلزم سوى انفصالنا المسلّي عن الكفر . ولسوف تتضايق من أي شيء كئيب ، أو فاقد الفكاهة ، مثل تقوى أجدادنا . أخيراً ، صرنا أحراراً في أن نؤمن بأنفسنا . وما دامت القواعد غير قائمة ، فعلينا أن نوجدها ، حتى لو كانت غير سليمة!...» . وهكذا دواليك .

كنت أكتشف لجيلي أسلوباً وطنياً جديداً . لا مزيد من الفضائل المدنية ، ما دمنا نعرف جميعاً الى أين تؤدي . لا وطنية بعد اليوم . لا تمجيد للرجال الذين يحملون السلاح . لا شعر تعليمياً بعد اليوم . لا

جرعات ماشية ، ولا حب الرعاة الصبيان ذا المذاق الإغريقي . كان عالمي شخصياً تماماً ، دليلاً بصيغ جيدة واضحة ، الى شؤون البلاد ، بحيث تمكن معرفة هذه الشؤون في المترين المربعين للفراش .

وقد خلق الامبراطور عصره . وهو يُدعى الأوغسطيني ، كما أعلن مؤرخونا بالفعل ، وقد ثبّتوا عيونهم ، بشدة ، على الحاضر . إنه عصر وقورٌ ، منظّم ، متباهٍ ، كئيب . إنه قائمٌ في قصائد المديح (التي رفضتُ الإسهام فيها) ، وفي الرخام الذي سيخلد الى الأبد .

أنا أيضاً خلقتُ عصراً ، مشتركاً مع عصره ، وهو قائم في حيوات وحب محكوميه . إنه عصر مرحٌ ، فوضوي ، سريعٌ ، وهو متعة . ولهذا السبب يكرهني الإمبراطور .

الإمبراطور أوغسطس سوف ينتصر في المدى القصير . والآن المدى القصير . فلقد أُبعدتُ ـ هذا هو تعبيرنا اللطيف ـ إلى نهايات العالم المعروف ، وطُردت من كنف لغتنا اللاتينية .

لكن ، في ظل بوّابة أهدتها أختُه إلى زوجها المخلص ، يُفعَل بأحدهم الليلة ، لأني جعلت هذا يحدث في إحدى قصائدي ، يحدث ذلك الفعلُ نفسه ، في المكان نفسه ، إشارةً الى تحدي الجمهور . الآن ، في كل ليلة ، يفكر أوغسطس بالأمر ، ويعضّ إبهامه . ثمت أماكن أقرب من البحر الأسود تتوقف عندها سلطة الإمبراطور . وبوابة كارسيللوس من هذه الأماكن .

لكنني هنا ، وكل هذا ، كله ، خلّفتُه ورائي بعيداً .

كم تبدو الآن ، سخريتي ، حمقاء ، وعقوقاتي ، ورقصي على الحبل المشدود فوق الهاوية . لقد تشممتُ طريقي الى الطرف الأقصى للأشياء ، حيث لا شيء يبدأ . ذلك ما أوصلت إليه أنفك . أنا أتشمم ، أتشمم ، ولا أخبار من هناك ، لا أخبار من هنا . إنني ميت . أنا مبعدٌ إلى إقليم الصمت .

كل ما أستطيعه أن أصرخ . وهذا ما أفعله .

أنا أمشي جيئة وذهاباً ، على خط الضفة الصخري تحت الجروف ، التي يقسم ظلها الحصباء إلى أجزاء متميزة من النور والعتمة . أنا أمشي بين الصيادين ، صائحاً ـ أراقبهم يرفعون باندهاشاتهم المتألقة ، من البحر ، صيدهم الذي لا أعرف له إسماً . أو أتمشى في الشجراء على قمم الجروف ، ألوّح بذراعيّ ضد البرد وأراقب العواصف تندفع من لا مكان ، أو شلالات عظمى من الشوك ترحل بيضاً على الريح ، فأطلق صيحاتي .

الطريق الى روما بعيد . وإن كانوا سيسمعونني ، فعليّ أن أرفع صوتي ، وأترك سيول الهواء الأسود هذه المتجهة غرباً عبر السهول ، تحملني معها . لقد جعلوني أصمتُ . لكني لن أهدأ .

كيف بمقدوري أن أقدم لك أي انطباعة ـ أنت الذي لا تعرف إلا المشاهد المشكّلة منذ قرون من أجل الفكرة التي تحملها أرواحنا جميعاً عن المنظر المثالي الذي يجب أن تتمّ عليه حياتنا ـ عمّا كانت عليه الأرض في عمائها الأول ، قبل أن نأتي إليها بنظام الصناعة ، والمصاطب الزراعية ، والحقول ، والبساتين ، والمراعي ، والحدائق المروية لعالمٍ نصنعه على صورتنا ؟

أتفكر بإيطاليا ـ أو أي أرض تسكنها الآن ـ باعتبارها هبة من الآلهة ، جاهزة ، بكل جمالها الرائق ؟ إنها ليست كذلك . إنها مكان مبتكَر . إن كان آلهة معك هناك ، متوهجين من شجرة بمرعىً ما ، أو محرّكين روحهم على حصى جدول في نور الشمس ، في الآبار ، في الينابيع ، في صخرة هي علامةُ حقِ امتلاكك سفحَ تلٍ ، إن كان الآلهة هناك ، فلأنك أنت اكتشفتهم هناك ، سحبتهم من داخل حاجتك الروحية إليهم ، وحلمت بهم في المشهد كي يتألق . إنهم معك بالتأكيد . عانق شجرةً ، وأحسَ بالروح تصبّ فيك ،

وأستشعرُ دفء الصخرة يدخل في جسدك ، إغمر نفسك في النبع كما لو أن في مكانٍ سائلٍ من جسدك تنام حياةٌ . لكن علينا أن نعترف بالأرواح كي تغدو حقيقية...

إنها ليست خارجنا ، ولا حتى داخلنا تماماً . إنها تروح وتغدو بيننا وبين الأشياء التي صنعناها ، والمشهد الذي شكّلناه ، وتدخل . لقد حلمنا بكل هذه الأشياء في أعماق حياتنا ، وهي ذواتنا . إنها ذاتنا التي نصنعها هناك ، وحين يكتمل المشهد نكون نحن الآلهة المؤهلين لملئه .

لكأن أي مخلوق قادرٌ على أن يحلم بنفسه ، خارجاً من وجود جديد ، درجةً أعلى في سلّم الأشياء . وبما أننا وعينا في نومنا ، فكرة كينونة أخرى ، فإن أجسادنا لتجد ، ببطء ، وألم ، المسار الطبيعي الذي سيسمح لها بكسر أغلالها ، والوثوبِ إلى تلك الكينونة . هكذا فالصخرة النائمة في الشمس ، كانت يوماً ما ناراً ذائبة وصارت صخرة حين استطاعت النار أن تقول ، بصورتها السائلة : «سأتصلّب . سأكون صخرة» ، والصخرة تحلم الآن بأن عروق المعدن داخلها قد تعود سائلةً ، وتتحرك ، لكن ضمن شكلها كصخرة ، هكذا وببطء ، وعبر قرون طويلة من التشوف لمثل هذا الظرف ، للنعومة ، للنبض ، تشعر أحد الأيام ، بأن التحول بدأ يحدث ، العروق ترتخي وتفيض ، والصلصال يلين ، وتكشف الصخرة عبر عصور طويلة من تخيل حياة أخرى ، عيوناً ، وفماً ، وأرجلاً تثب بها ، وإذا بالعلجوم . والعلجوم بدوره ، يعي ، وقد صار قادراً على السعي في الأرض ، إمكانَ التحليق في الهواء ، ويحلم بنفسه محلّقاً ، ذا جناحين ، وهو لايزال علجوماً . أجسادنا ليست نهائية . نحن نتحرك ، جميعاً ، في بشريتنا المشتركة ، وعبر الأشكال التي نحبها أكثر فيما بيننا ، نحو ما لمسته أيدينا ، ونحن نفعل الحب ، وما توترت له أجسادنا في عتمة الآخر . ببطء ، وعبر القرون ، يتقدم كل واحد منّا ،

بقدر متناهي الصغر ، نحو إنسان نهائي ، كنا أعددنا المنظر لرضاه ، إنسانٍ نهائي لا يمكن إلا أن يكون إلهاً .

لقد رأيت نهاية هذا كله ، بوضوح ، في مخيلتي : الأرض تتجلى ، ولاآلهة يمشون عليها في ضوء أجسادهم . ولقد رأيت الأرض ، كما رأيتَها أيها القارىء ـ مهيأةً لهذا منذ الآن ، مادامت عقولنا تعي ، وأيدينا تصوغ ، ما لم نتهيأ بعدُ لدخوله : حقول ذرة بعلوّ قامة ، منتصبة السيقان تحت الشمس ، متمايلة تحت القمر . غياض زيتون تتغير من الأخضر إلى الفضي ، كأن إلهاً قال : «فضة» ، ومرّت أنفاسه في المنظر لتحوّله مع التفاف الأوراق . أنت تعرف هذا كله . إنها الأرض كما صنعناها ، نمهدها ، وننقّيها ، ونزدرعها ناقلين البذور من مكان إلى آخر ، غير متبعين خطةً معلنة ، لكن تاركين لمعداتنا أن تهدينا السبيل ولجوع آخر أعمق ، حتى يكشف لنا المنظرُ الذي صنعناه ، المخلوقات التي نتشوف إليها ، والتي يجب أن تكون .

أنا أعرف إلى أي مدى بعيد وصلنا ، لأنني كنت عائداً إلى البدايات . لقد رأيت الأرض غير المغيّرة . إنها منبسطة ، بلا ملامح ، مستنقع في الصيف ، ومتاهٌ متجمد في الشتاء ، بلا شجرة ، بلا زهرة ، ولا حقل ممهّد . الحبوب البرية فقط تنمو معاً في كتل مريضة ، أو تتطاير متناثرة مع النسيم . إنها موضع الوحشة المطلقة . البداية . أنا أعرفها كما أعرف ما بداخل رأسي . لن تستطيع أن تكوّن فكرة عن المدى البعيد الذي بلغناه ، وعن العودة البعيدة التي كنت فيها كي أرى هذا كله . كم كانت حياتنا متخلفة في بداياتها .

ومع هذا ، فإن اختلاجات حياة جديدة تتحرك حتى هنا . البذور الأولى تُعزل وتنقّى ، وتأخذ طريقها الطويل إلى الكمال .

اليوم ، كنت أتمشى ، محتذياً نعليّ العتيقين ، مرتدياً قبائي ،

معتمراً قبعة قش اتّقاء الشمس ، متعثراً ، أكلّم نفسي في الخراب الموحل ، نحو النهر ، ولقد تسمّرت قدماي لانتفاخة صغيرة من القرمز بين الذرة البرية .

قرمز!

إنه أول لون أراه منذ شهور . أو هكذا يبدو . قرمز . كانت زهرة خشخاش بري ، ذات حمرة جد مفاجئة . بحيث جعلت دمي يتوقف . ظللت أردد ، لنفسي . الكلمة ، مرّات ومرات ، قرمز ، كما لو ان الكلمة ، شأنها شأن اللون ، قد أفلتت مني ، وأن مجرد نطقي بها سيحفظ الزهرة الصغيرة التي تهزها الريح ، في مرآي . زهرة خشخاش . سحرُ نطقي الكلمة جعل جلدي يقشعرُ ، كأن القول معجزةٌ أعظم من البصر . سكرت بالفرح . رقصت . صرخت . تخيلْ دهشة اصدقائي في روما وهم يرون شاعر العاصمة الهجّاء ، الذي لا يكاد يعرف زهرة ، أو شجرة ، يرقص ويدور بنعلين متقطعين على الأرض المفخورة المتشققة في مواضع ، والغارقة في الوحل المنتن في مواضع ـ أن يروه يرقص ويغني لنفسه ، محتفلاً بهذه الزهرة .

يا زهرة الخشخاش ، يا زهرة الخشخاش القرمز ، يا زهرة طفولتي البعيدة ، وحقول الذرة حول مزرعتنا في « سالمو » ، لقد أعدتُك ثانية الى الوجود ، وبعثتُك من دمي ، لأجعلك تتمايلين مع الريح . قرمز . الكلمة السحرية على اللسان ، لتبرق ثانيةً في العين . قرمز . ومعها تأتي الألوان كلها ، عائدةً ، متدافعة ، كالتعازيم ، وتنفجر الأرض بها ، وتتوامض حولي . إنني أصنع الربيع . مع صفرة زهرة المرغريتا الصغرى التي تشبه عين الثور ، زهرة غياض زيتوننا ذات الحشائش ، مع زرقة القنطريون العنبري ، مع اللون البرتقالي لزهرة القطيفة ، وأرجواني القمعية ، حتى مع أزهار القرنفل وبخور

مريم في حديقة أمي التي نسيتها طوال هذه السنين كلها . إنها تعود... مع أن هناك في الواقع ، زهرة خشخاش وحيدة ، تويجات قليلة نسيجها رقة وألق ، حول تاج من البذور .

من أين جاءت زهرة الخشخاش ؟ لقد بحثت وبحثت لكني لم أستطع أن أجد سواها . يجب أن تكون البذور قد دفعتها الريح داخل الأرض ، فتجذرت . لكن ، من أين ؟ من البحر ـ محمولة في شلاّل من الغبار المضيء ، كي تسقط بيننا ؟ أو في أحشاء طائر في طريقه إلى الشمال ، ونمت من ذرقه العابر وهو يمرق ؟

أقتعد الأرض وألحظها . أنا أحب زهرة الخشخاش هذه . وسوف أحرسها .

بغتة ، امتلأ رأسي بزهور من كل نوع . تتفتق من الأرض في حقول عميقة ، وتدور في جمجمتي . كان عليّ أن أسمّي الأزهار ، حسب ، بدون أن أعرف شكلها ، لونها ، عدد تويجاتها ، حتى تنفجر براعم ، وتطقّ متفتحة ، تنشر ضوعها في ذهني ، وتفتح المقاطع السريّة وأنا أضعها كالبذور على لساني ، وأمنحها نفساً . سأقيم بساتين كثيرة مثل هذا . أنا زهرة . أنا برسيفون . وعندي الآن الحيلة . الأمر لا يحتاج إلا إلى الإيمان .

وبالإمكان أن يتحقق هذا ، كما قدّرت ، كالآتي : نحن نمنح الآلهة أسماء فيسرعون إلينا ، وهم يصعدون بمجدهم وقوّتهم وجلالهم من الأذهان ، يتقدمون ليعملوا في العالم الأبعد ، يغيروننا ويغيرونه . وهكذا ، تستخرج منا الكائنات التي نحن في طور أن نكونها . ليس علينا سوى أن نجد الإسم ، وندع نوره يفعمنا . مبتدئين ، كما هو الأمر دائماً ، بالبسيط .

يا زهرة الخشخاش ، لقد أنقذتني ، واستعدت الأرض لي . أنا أعرف كيف أطلع ربيعاً .

إنه ليكاد يبدأ . كانت حياتي كلها ، حتى الآن مضيعة .

عليّ أن أدخل في الصمت لأجد كلمة السرّ التي سوف تطلقني من حياتي نفسها .

إلا أن الكلمات ، قد كتبت . فعلاً . كتبتها منذ سنوات ، والآن فقط أكتشف ما عنته ، وأي رسالة كانت لي ، فيها : «سوف تُفصل عن نفسك ، لكنك ستكون حيّاً » .

الآن ، عليّ أنا أيضاً ، أن أتحوّل .

2

الوقت يكاد يكون مساءً . نحن نجلس ، الشيخ ، والطفل ، وأمه ، وأنا ، في الدفء الأخير للشمس في الحوش ، خلف حاجزنا الخشب .

عار هذا الحوش إلا من مصاطب ، ومسنّنة دائرية يتدلى منها اليقطين المعلّق بخيوط كي يجفّ في الشمس . ثمت الأحجار التي تطحن بها النسوة الحبوب ، موضوعة في شكل دائرة . العجوز ، والدة شيخ القرية ، لاتنضم إلينا هنا ، البتة . وبدلاً من هذا تظل تغمغم في الحجرة الخلفية ، وبين حين وآخر تُدخل رأسها ذا الفك الأدرد ، محذّرة المرأة الشابة ، فالطفل يجب أن يُلف جيداً ، أو أن يأوي الى الفراش . وأحياناً لاتفعل إلا الاستناد الى مرفقها والإنصات ، وتجفلنا بضحكتها المفاجئة .

إنه الوقت الهادىء من اليوم ، حين تكون الأشغال الأصعب انتهت ، ساعة ماقبل النوم . غيوم كبيرة تتحرّك سريعة فوق رؤوسنا . وثمت ريح تهب من الشمال ، من السهوب ، نازلةً على النهاية الباردة للنهر . الأوراق تتطاير ، مدوّمةً عالياً فوق أعمدة السياج . لكن الجو دافىء في الشمس الأخيرة ، حين لايكون المرء في مهب الريح .

كنا نتناول عشاءنا ، هنا ، خارج البيت : حساءٌ من نبات القرّاص ، وجبن ماعز مطيّب بالأعشاب . أوعية الطعام ، بجانبنا ، على الأرض . المرأة

الشابة تعود الى العمل ، تخيط شرائط من الجلد الخشن عباءةً ، قدماها الحافيتان منفرجتان قدامها ، والجلود على ركبتيها ، وهي تعرق قليلاً ـ عند الحلق ، وعلى خط شفتها العليا ـ ، وتتوقف بين فترة وأخرى لتبعد الشعر الرطب عن حاجبيها ، بظاهر يدها .

التقطتني ، أنظر اليها ، فالتقت عيناها بعينيّ ، إنها لم تعد تفزع منّي أو تحار فيّ ، أو حتّى تتسلى بي . فأنا مجرّد شخص آخر من أهل بيت عمّها ، حيث هي غريبة الآن مثلي ، بعد أن مات زوجها . إنها تستمع الى الشيخ ، يحكي للولد حكاية بينما هو منشغل يعمل في شبكة . أنا أيضاً استمع . أنا العاطل الوحيد هنا ، أدع الكلمات الغريبة تملأ رأسي ، بدون أن أفهم شيئاً منها ، لكني مأخوذ بالرغم من ذلك ، مأخوذ بسماع الشيخ يكتسب صوتاً آخر غير صوته ، عميقاً ، وأجشّ ، أكثر ـ عينا الطفل تنفتحان دهشةً ـ أو رفيعاً ، نسوياً ، يجعل الطفل يرفع كتفيه ، ويقهقه ، ويثير لدى العجوز الجالسة خلفنا إحدى نعباتها .

حكاية الشيخ ملأى بالعجائب . تساءلتُ مع نفسي ، أهي عن ذئب ؟ عن دبّ ؟ عن روح شيطاني ؟ المرأة الشابة التي كانت سمعت هذا كله من قبل ، تراقب الطفل في توقع . تضحك حين يضحك ، وتلاقي عيناها عينيّ كي أضحك ، أنا أيضاً . وحين يثير صوت الشيخ ـ ماذا ؟ ساحراً ، أحد الآلهة ؟ ـ تتوقف أصابعها عن العمل لحظة ، وتُظلم عيناها .

في مكان ما ، عميق ، بداخلي ، أعرف هذه الحكاية . لقد سمعتها من قبل . في طفولتي . من أحد عبيدنا . ربّما . ولو في لغة أخرى . النغم تعرّفت عليه .

صوت الشيخ يتموج في الهواء ، بينما كانت الدنيا تعتم من حولنا . نحن ندخل في الشتاء ، في الليل . يداه المربّعتان الخشنتان تشتغلان دائبتين في الشبكة . إنه صانع ماهرٌ . ولقد عرفت ذلك . فالمرء يرى

مباشرةً ، لمسته الواثقة . إنه منغمرٌ عميقاً في حكايته ، وفي معالجته الشبكة ، الى حد أنه لاينتبه الى حضورنا ، إلا حين يضحك الطفل أو يلمس ركبته لحظةً ، من الخوف .

أنا أدعوه شيخاً ، مع أننا قد نكون متقاربين في السن ، وأنا لم أبلغ الخمسين بعدُ . شظف حياته ، وعَنَتُ هذا المكان ، قد أرهقاه ، ولوّحا بشرته ، وغضّنا وجهه ، بحيث يبدو للعين الرومانية رجلاً في السبعين من عمره . إنه متين البنية ، صلب العود ، وهذا لم أتمتّع به يوماً ، ويتبدّى لي الرجل برأسه الحليق وقذاله ، ذا نُبلٍ قاسٍ .

أحاول أن أتصوّر حياته ، موازيةً لحياتي عاماً بعد عام ، لكن الصور تخذلني . فأنا لاأستطيع أن أدرك طفولته ، أو شبابه ، أو أتخيّل المرأة الميتة التي كانت زوجته ، قبرها خارج القرية ، حيث رأيته يتوقف مرة أو مرّتين في عودته الى البيت من المرفأ . يجب أن تكون حياته ، مثل مارأيتها الآن ، وعاماً بعد عام ، العمل ، النوم ، العمل . ومع هذا تبدو لي حياته غامضة ، فالأمر المنسيّ فيها ، هو كرامته التي تجعلني أشعر بالحمق والدوار .

كانت حياتي طائشة . فقد رُبّيتُ لأومنَ بأعصابي ، بالقلق ، بالتنوع ، بالتغيير ، وتعلمتُ من الكتب فقط ، وكنت أعيش دائماً في حالة من الأمان الرخيّ ، قادراً على تدليل نفسي ، وعلى الانجراف في غيمة من المشاعر اللطيفة ، ومع انطباعاتي المريحة عن ذكائي ، واجتماعيتي ، ولطفي ، ومنبتي الطيب ، وأن لاشيء يمكن أن يحركني بدون أن أسمّيه ، وأن لاأؤمن بشيء لست أراه ، وكوني لم أجابه تحدياً لايستطيع صبيٌ نابهٌ التعامل معه ، وكوني تعلّمت مبكراً (ربّما مبكراً جداً) أن ألوي الأسئلة كلها ، بمهارة وحذق ـ كيف لي أن أعرف القوى التي صنعت هذا الانسان ، مروّض الجياد هذا ، الذي يأخذ من طبيعتها شيئاً في نفسه ، ويهذبه ؟ إن في عينيه ، وفي كلامه ، وفي البطء القوي لتحركاته ، شيئاً من السهوب

المترامية التي جاءت منها تلك الجياد ، وجاء منها مروضو الجياد هؤلاء ، الذين لايُدفنون حين يموتون ، مثل الرجال الآخرين ، لكنهم يُتركون ليمتطوا الأرض في كتائب هواء .

غداً سأذهب مع الشيخ ، في فريق صيد ، الى غابات البتولا ، حيث الغزلان .

حين نجتمع في الحوش الصغير يكون مكسواً بالصقيع ، وثمت نجوم ، صلبة ، ناتئة ، خفيضة فوق رؤوسنا .

نأكل معاً على المصطبة : صحون لبن خاثر مخفف بالماء ، مسخّن في قدر ، ومحلّى بعسل غامق الطعم . النحل برّي يغتذي أعشاباً في عمق الدغل ، وللعسل مرارة تلك النباتات الغامضة ، مما يمنح اللبن الخاثر ضوعاً يملأ المنخرين قبل أن يبلغ الطاعم مذاقه الحلو . وعليك أن تعتاد . لكني جائع آخذُ صحناً آخر مع سواي .

لم نكد نفرغ من مأكلنا ، حتى وصل الآخرون ، مرتدين طماقات جلد ذات سيور ، وقمصاناً مطرّزة مفتوحة على الصدور ، حاملين قسيّاً . هم ثلاثة شبان يبدون قساةً بسوالفهم السود وشعرهم الطويل ، وشيخ أشيب ضئيل ، هو شامان القرية . وخلفهم في هرجٍ صاخبٍ ستة أطفال حفاة .

شيخي يحييهم ، ممسكاً بيدي كل واحد منهم ، بالتتابع ، ويعانق الشامان الذي يردّد عبارات مباركة ، ليس فقط للشيخ ، وإنّما لكل من المرأتين ، وللولد ، والمصاطب ، وعضادات الأبواب ، وحتى لي .

نلتم في حلقة ، ونصمت . الطفل يتركنا الى حيث القدر منصوب دافئاً في الحوش ، فتغرف أمه في يديه قليلاً من اللبن الخاثر الذي كنّا نأكله . يعود الطفل بخثارته ليدخل في الحلقة ، ويخيّم سكون بينما تتجمع شياطين الدار ، زاحفةً من تحت الجمر ، من أوعيتنا الفارغة على المصطبة ، من

شقوق الحيطان وزواياها . يبدو الولد عصبياً وهو مركز هذا كله . عيناه تدوران في الساحة ، من النار الى المصطبة . باحثاً عن المخلوقات التي تُركّز اهتمامها الآن عليه ، وعلى كفيه المكوّرتين اللتين تضمّان خليط كل حبوب الحقل وأعشابها ، عارفاً أنه في فترة الاحتفال القصيرة ، لم يعد هو نفسه ـ صغير أهل البيت ، القصير السمين ، ذا السنوات السبع ، المدلل أكثر من اللازم ، والمشؤوم ـ بل هو مُسَيّر قوى الظلام ، وتجسيد البيت ذاته ، يتنفّس ثقيلاً في الصمت ، ويرتجف ، ماداً يديه بثمار الأرض الشحيحة كي تذوقها أفواهٌ خفيّةٌ .

يبدأ الشامان يغني ، وينضمّ الى غنائه الآخرون . الولد يتصلّب ويختضّ . وحين ينسكب من بين كفيه قليلٌ من العصيد ، وبعد لحظة شك ، يخفض رأسه ليلعقه ، آنذاك يقرص الشيخ الولد قرصةً خفيفة بدون أن يتوقف عن الغناء . العصيد ينسكب ، وأشار أحد الشبان الى الولد بأنه غير ملوم ، ثمّ سوّى بجزمته التراب على العصيد المنسكب . يتوقف الغناء . ونقف صامتين . عينا الطفل تطرفان قلقاً ، وأراهما تتحولان بسرعة الى أمه التي تومىء له برأسها ، ثم الى جده الذي يربت على رأسه بلطف ، الولد يستدير متيبّساً ، ونحن نراقبه بدقة الآن ، وهو يمد أمامه يديه المكوّرتين ، ويعود بطيئاً الى القدر ، ويسكب بقية الخثارة على النار . النار تهسهس . ومع هسهستها تنفرط الحلقة . الجميع يضحكون ، ويشرعون يتكلّمون في وقت واحد ، وتمتلىء الساحة بالنشاط ، بينما يبتعد الرجال ليأخذوا قسيّهم ، والنسوة يغسلن يدي الولد بقماشة ، والشيخان يمزحان ويصفع أحدهما كتفي الثاني . بيد أن العلامات كلها مواتية ، تبشّر بالخير . بإمكاننا الذهاب .

الخيل ـ قصيرة ، متينة ، ذات سروج خشب مكسوة بالقماش ـ أُحضرتْ الآن الى مدخل السياج ، ونحن نمتطيها . الشيخ ، الذي يبدو

خَجِلاً ، لي ، أمام جيرانه ، يُريني كيف أركب الحصان بلا ركاب ، ضاغطاً خاصرتي الحصان بركبتيّ ، أما الشبّان ، فكانوا يشغلون أنفسهم بسيور سروجهم ، تأدّباً . يصفر أحدهم ، وهو ينظر بعيداً ، عبر بطائح النهر ، الى الشمس التي ليست سوى مسحة من ضوء شاحب على الأفق الشرقي ، ينصبُ ، ويتّقد في الضباب . نخرج ، راكبين ، من القرية . الأرض نحو المناقع بيضاء من الصقيع ، وحوافر خيلنا تترك آثاراً كبيرة سرعان ماتنكسر وتنتشر ، كأن فرساناً هائلين ، كالذين أراهم في حلمي ، يتبعوننا بدون أن نراهم ، وهم يضعون الحافر على الحافر بصورة دقيقة . الضباب يدوّم من البطائح ، حول صدور خيلنا ورُكبنا . كأننا نخترق الغيوم . لكنّ في الأعالي ضوءاً أصفر تقطعه مِزقُ غيمٍ ، والطيور تغرّد .

بعد نصف ساعة ، والشمس عالية فوق الأجمة . كرةً حمراء وحيدة ، كأن الهواء لايزال كالغيم ، يشفّ في المرتفعات ، ويكثّف كنثير الموج حين نكون في المنخفضات .

نحن نتحرك بطيئين ، الخيل تشق طريقها خلال المستنقع ذي الحشائش المتطاولة وتتنفّس مجهدةً ونحن نرتقي التل . كل الأرض التي تعلو بطائح النهر غير ممهدة ، وعلينا أن نلازم تلك الأرض لأن المناقع لاتزال مغمورة بأمطار الصيف .

أخيراً شرع الضباب ينقشع . لقد صرنا في أرض قليلة الشجر ، ينبت فيها عشب مبيضٌ ذو رؤوس كالرماح ، تضيء ذهبيةً وبنّيةً في الشمس الطالعة . الأرانب تفرّ منّا الى الدغل ، والرجال يضحكون ويتصايحون وهم يرون الذيول البيضاء الصغيرة تبتعد . نحن الآن نصعد نحو هضبة شجراء وراء بروز من صخور متكسّرة قد يحسبها القادم من عالم آخر ، تحصينات قديمةً . نحن نصعد صعوداً حاداً بين الجدران الغرانيتية المنتصبة ، وأسمع

في أول الرتل ، أول حصان يخبُ في مايجب أن يكون منفسحاً . وحين أعتلي آخر نهْدة معشوشبة ، والحصان يكاد ينزلق تحتي ، أرى .

إنها دائرة طبيعية ضخمة . توقف أول الفرسان على مبعدة ثلاثين ياردة منها ، وأسرع الآخرون ليكونوا الى جانبه . ثمّ ينطلقون ، معاً ، في رتل ، داخل ستار من أشجار الصنوبر التي كادت الريح الهابّة تعريها ، وأنا متخلّفُ عنهم قليلاً ، فلقد عرفت أننا في صعودنا الى هذا المكان قمنا بتحويلة ، وهذا يعني أن ثمت طقساً سيقام ، ليس لي دورٌ فيه . دخلنا في ستار الصنوبر ، على بساط من الأشواك الناعمة التي أثارت حوافر الخيل عطرها .

عندما بدأت غابة الصنوبر تفقد كثافتها ، بان ماوراءها . للوهلة الأولى لم أستطع أن أتبيّن ماهو . ثمّ أدركت من الحكايات التي سمعتها أنه الدائرة العظمى لركام الجنائز ، ربّما كانت مائة كومة ، كلها من الحجر المكسور ، وكثير منها لايزال يعتليه الهيكل العظمي للحصان ، وراكبه ، مخوزقاً على وتد ، وهي الطريقة اللائقة لدفن فارس . وأنا أتبع الراكبين حول الدائرة العظمى . طيور كبيرة تخفق أجنحتها مبتعدة وتحلّق في دائرة فوقنا . الريح تهزّ الأوتاد ، فتقرقع في مغارزها ، فاستعَدتُ جيش الأشباح الذي رأيته في حلمي .

نحن الآن راكبين ، حول الدائرة ، مرةً ، ، مرتين ، ثلاثاً ، ثمّ نتوقف . الشيخ يُخرج من كتفه محفظة ملأى بالحب ، وبغتةً يقود الفريق كله في سباق وحشيّ بين الموتى ، جيئةً وذهاباً ، بين الأوتاد المقعقعة وهياكلها العظمية ، ملقياً حفنات من الحبّ في أفواه الموتى ، وصارخاً كي يبعد الأرواح الشريرة والطيور . وألحظ للمرة الأولى أن حولي في نور الشمس سيقاناً هزيلة من الشعير ، والشوفان البري ، وحتى القمح . نحن في وسط حقل كبير .

تصمت صيحات الرجال ، ويركب الشيخ الى جانبي ، مبتسماً ، ويقدّم لي قبضة بذور . آخذها مرتبكاً ، وأخفق للوهلة الأولى في معرفة مقصده . بابتسامة تكشف كل أسنانه الرديئة ، يرمي رأسه الى الوراء ، ويطلق صرخة تخثّر الدم . ثمّ يومىء برأسه ويبدو كأنه يتوقع شيئاً .

وبوعيٍ ذاتيّ مني ، أعيد الصوت . يبتسم ثانيةً ، ويصفق كتفي ، وهو لايزال يبتسم . أدور في الدائرة المتألقة ، مقدّماً تقليدي الخافت لصيحة موت الفارس ، وناثراً حفنتي من الحبوب .

والغريب حقاً ، أنني أشعر بلحظة انتعاش ، وأنا أروح وأغدو بين الأشكال المنتصبة ، مما ذكّرني بشيء ـ شيء يعجز ذهني عن الإمساك به ، كأن هذا كله قد حدث من قبل . أنا أصيح ثانيةً ، أعلى ، وأدور في الحقل دورة ضيقة ، كما رأيت الآخرين يفعلون ، تاركاً الهواء البارد يملأ رئتيّ ، ثمّ أطلق صيحةً مديدة ، وأشعر أنني تحررت من شيء . كأن خوفاً ما خرج من أنفاسي وجعل روحي حرة . وأقول لنفسي أنا روماني ، أخبُّ عائداً الى حيث يجلس الآخرون ، مبتسماً ابتسامة عريضة . أنا شاعر روماني . لكن ذلك النفَس ، والصوت الذي يحمله لايزال يخرج من جسمي الى العالم ، وأشعر بأنني أكثر حرية ، لهذا السبب يحييني الشيخ بأن يمسك يدي . يقول كلمات لاأفهمها ، وبينما نحن نركب ، عائدين ، ينحني أحد الشبان بحصانه جانباً ، كي أتمكن من أن أتقدّم الصفّ بعد الشيخ مباشرةً ، بينما بقية الفريق تتبعنا .

وأنا على ظهر جوادي ، في نور الشمس ، أجدني أفكّر ، ربّما للمرة الأولى في ثلاثين عاماً ، بشقيقي الذي مات حين كنت شاباً ، والذي احتللت مكانه باعتباري وارث أبي .

قبل ثلاثين عاماً ، وأنا على ظهر جوادي ، مثل الآن ، بعد جنازته . وأبي الى جانبي ، تقدمت فجأة ، وجعلت بيني وبين أبي جواداً . إنه غاضبٌ

منّي ، وأنا منزعج ، متضائل ، لأنني أعرف مايفكّر فيه : فمنّا ، نحن الاثنين ، كان أخي هو الذي ينبغي أن يظل حياً . فأنا شخص لعوبٌ ، لايصلح لشيء في العالم . أخي هو الذي كان سيحافظ على آخر قطعة من أراضينا ويتسنم منصباً عامّاً رفيعاً ، ويفعل كل ماهو متوقع من ابن طيب أن يفعله بخصوص تقوى آلهة عائلته . أعرف أن هذا حقيقةً ، وأحس بحياتي ، وثقل جسدي كله على السرج ، عبثاً . كنت سأفعل أي شيء ، كي أرقد في القبر الحجري ، وكي يكون هو على ظهر جواده في نور الشمس ، وأبي الى جانبه . لكن الكبرياء جعلني عنيداً .

والذنب . كنت لتوي أخبرتُ أبي بأنني سأغادر ، ولن أعود . ولقد بدأت بالفعل مغادرتي ، مبتعداً عنه على الممر الضيق من الغيضة ، وجاعلاً بيني وبينه مسافة حصان كاملة . أنا الآن في طريقي الى روما . أنا في طريقي . وإن كنت لم أعرف هذا بعد ، الى المنفى ، منطلقاً الى هذا اليوم ، بعد ثلاثين عاماً ، حين سأكون شيخاً ، أركب مع البرابرة في نهاية العالم ، خارج القانون الروماني الذي آمن به أبي إيماناً حارّاً ، وخارج الدولة الرومانية على مسافة تسعة أيام من الركوب . من كان يحزر ذلك الصباح ، بأننا سنركب ، مبتعدين عن بعضنا ، الى هذا الحدّ ـ وأن لعنته عليّ ، التي قد لايكون نطق بها ، بل ربّما لم يسمح لها بأن تخترق سطح ذهنه ، قد طوّحت بي الى هذا البُعد ، وظلت طيلة هذه السنين مثل تيّار بارد على ظهري ، حتى في نور الشمس .

الآن ، بغتة ، صار نور الشمس على ظهري دافئاً . ففي مكان ما ، في كل تلك الصيحات البربرية على الهضبة ، جعلتهما يعودان الى حياتي ، الأخ الميت قبل ثلاثين عاماً ، والأب الدفين عاماً واحداً فقط قبل طردي . لقد كنت أصيح من أجلهما . والطقوس التي لم أكد أؤديها باردة من أجل أب

روماني ـ هذه الطقوس عادت حيةً ـ فجأةً ، في تلك الصيحة ، فانتهيتُ من الموتى . حرٌ ، أخيراً ، لأهيىء موتاً خاصاً بي .

منتصف النهار تقريباً ، ندخل غابة البتولا ، حيث مُطّردُ الصيد . الأشجار ، منذ الآن ، عارية في معظم أجزائها ، جذوعها الفضة محزوزة بالأسود ، آخر الأوراق الذهب عَلقتْ بعصا مكنسة من الفروع ، والأرض تحت حوافر خيولنا تئنّ وتتنخّل بالمُستاقط من الأوراق النفيضة . الشمس مبتلة ، والسماء شاحبة والنهار بلا ريح . ساكنٌ بصورةٍ غير طبيعية .

أحد الشبان يترجّل ، ويأخذ بعنان حصانه ، ينحني متفحّصاً الأرض ، مقتفياً الأثر . ترجّلنا جميعاً ، نمشي خلفه ، ليقودنا الى وجار ذئب . كانت الذئبة واقفة عند المدخل ، مكشرة عن أنيابها ، أما جراؤها ، وقد دوهموا في العراء ، فقد كفوا عن التمرّغ ، والمداعبة... مخلوقات ناعمة كلها فرو ، عندما جئنا تراجعوا ، على أربع ، محتمين خلفها ، ناظرين إلينا . نمضي في سبيلنا ، لنعثر فيما بعد ، على أثر دُبّ ، ثم على أثر غزلان .

ومن المدهش أن يكون بين هذه الآثار مواطىء قدم بشرية ، مع أن الآخرين لم يبدُ عليهم الاستغراب . كانت مواطىء القدم البشرية ، عارية ، صغيرة ، قد تكون لطفل . أومأ الشيخ بوقار ، وشرح الأمر بالإشارات . إنه طفلٌ في العاشرة أو نحوها ، ولدٌ متوحش ، يعيش مع الغزلان . كانوا وجدوا الآثار قبل موسمين . والعام الماضي رأى أحد الصيادين ، الولد ، لكنه لم يستطع الاقتراب منه .

الهياج يتآكلني . عندي ألف سؤال لهم لكني عاجز عن قول شيء .

من أين أصل الولد ؟ من هما والداه ؟ كيف وصل هنا ؟ كيف كان بمقدوره أن يظل على قيد الحياة ، عارياً في الفصول كلها ، ولاأحد يطعمه ويرعاه ؟ كنت سمعت ، من قبل ، بأحداث كهذه . هناك قصص في كل

مكان ، عن أطفال متوحشين ، لكنّك حين تدقق في الأمر لن تجد من رأى طفلاً متوحشاً رأي العين . كما أن لدينا التوأمين الرومانيين ، الأخوين الذئبين ، أبوَي دولتنا . أتساءل إن كان أحد يصدق وقائع أسطورتهما ، ماعدا قلة من الفلاحين البسطاء ؟ لكن مواطىء الطفل حقيقية . حقيقية تماماً مثل آثار الغزلان بجانبها . لمست مَوطِئاً منها بأناملي ، محاولاً أن أتحسس ، باللمس ، المخلوق الذي خلّف الأثر . بادئاً ببعض الدفء الذي أتخيّل أني أحسه ، أستحضرهُ ، وأستدعيه . لكن هذا غير معقول . يجب أن تكون القدم مسّت الأرض في خطفة ثانية ، حسب . كان الطفل يركض ، واثباً على الأوراق . أنت تعرف من عمق الأثر ، والمسافة بين موطىء وآخر ، أن الطفل كان يركض مع الغزلان ، وأنه كان يضاهيها في خفّته وسرعته .

ألمس أثراً ثانياً منها . تبدو كالمعجزة . وبغتةً ، كأن مخيلتي قد استدعته حقاً ، أرى الطفل ، والأغرب في الأمر ، أنني عرفته . أنا ، أولاً ، أرى هيأته ، بين شجرتي بتولا على مبعدة خمسين ياردة تقريباً ، مقعياً مثل حيوان ، ناظراً الينا ، ولداً نحيلاً مثل عصا ، ناتىء الأضلاع من البشرة الملوّحة ، بارز عظمي الكوعين والركبتين ، منسدل الشعر الأسود على الكتفين . وثب لسماع صيحتي ، وابتعدَ داخل الغابة .

أرأيته حقاً ؟ أم أنني رأيت ، فجأةً ، بعد كل هذه السنين ، الطفل الذي طالما كان رفيقي السرّي في «سالمو» ، والذي نسيت حتى وجوده نفسه . فجأةً ، كان ثانيةً ، أمامي . هل كانت الرؤية حقيقية ؟ أنا شكّاك . لكن الرجال يصدقون .

إنهم يمتطون جيادهم ، بسرعة ، وينطلقون الى حيث أشرت بيدي ، حوافر جيادهم تثير كتلاً ونثيراً من الأوراق ، وفي الوقت نفسه اندفعت ستة غزلان كانت ترعى ، اندفعت مذعورةً ، رشيقة العَدو ، نحوي ، عبر المنفَسَح ، وأنا أصيح وأسقط .

كانت لدى الرجال حين عادوا ، قصة لم يستطيعوا أن يُفهمونيها . هل رأوا الولد حقاً ؟ إنه ، . بالتأكيد ، غير قادر على أن يسابقهم . ربما غارَ في الأرض ، في وجار ذئب ، أو عميقاً في ملتفة أوراق ، أو تحت جذور شجرة ما .

نحن على خيولنا ، نتقدّم بطيئين بين الأشجار ، نشق سبيلنا متلوياً بين الجذوع المفضفضة ، كأننا في حلم . ونتنادى لنحدّد مواقعنا ، ونفتح عيوناً واسعة لكل حركة ، مرهفي الآذان لأي صوت .

مجموعات الغزلان تجفل منا . وأحد الشبان يصيب غزالاً ، ويعلقه متدلياً على كتفه ليكون عشاءنا . قضينا ، العصر كله ، ندور حول مئات البردات القليلة من الغابة . كأننا في حلم ، حتى شرع ضباب السماء يتجمّع ، والضوء يخبو . ماذا ترانا فاعلين لو رأينا الطفل ؟ تساءلتُ مع نفسي . هل نطارده ونقبض عليه ؟ وماذا بعد ؟ ومن يكون ؟ صار النهار أزرق ، والظلال تتجمّع حولنا ، والشيخ يقرّر أن نخيّم .

تربط الجياد ، ويعيّن الشيخ مهمةً لكل واحد منّا . مهمتي أن أجمع أطرافاً للنار . أحد الشبّان ظل في مكانه ، كي يسلخ الغزال ويقطعه ، وقد أدى مهمته ، سريعاً ، نظيفاً ، معلّقاً الجلد كله على غصن ، ومقطّعاً اللحم قطعاً للشواء . ترك الأحشاء جانباً ، مع وعاء مليء بالدم الأول للذبيحة .

أنا أطوّفُ ، متمتماً مع نفسي ، وجامعاً حزمتي من الأطراف ، ثم أجلس حاضناً ركبتيّ ، مفكراً به : الطفل .

أين هو ؟ ألا يزال يراقبنا من مكمنه ؟ أتذكر الآن ، بوضوح ، عينيه ، مثبتتين عليّ ، عبر المنفَسَح بين الأشجار . تلك النظرة كانت شيئاً لم أستطع أن أتخيّله . لم أرَ من قبلُ ، مثلهما ، إلا عيني طفلي ، في السنين السوالف . أنا لم أبتدع في قصائدي أمراً مثله ، قصائدي التي كانت ملأى بمخلوقات غريبة ، اقتُنصت بين الإنسان ومخلوق أعلى أو أدنى ، في لحظة من التحوّل

المؤلم . إنه ليتجاوز خيالي ، ذلك الوجه الصغير الحادّ ، بنظرته السوداء ، وأفكّر بشعري ، كم كان يائساً ، بخرافاته الأنيقة ، ومعجزاته الجميلة ، اليسيرة شرحاً ، مقارنةً بالحقيقة العارضة لهذا المخلوق الذي ينبغي أن يوجد (إن وجد) لا ليتميّز ، بل ، بكل بساطة ، لأنه ، وبكيفية ما ، وقع في الكينونة . أحضنُ ركبتيّ ، وأتحدّثُ الى نفسي بلغتي ، بحيث أثرتُ الذعر في الصياد الشاب ، الملطخ بالدم ، ذي الوجه السمح ، والسيماء البريئة ، حتى ابتعد عني . وإذ عاد الآخرون ، رأيته يكلّم الشيخ الذي نظر اليّ ، خجلاً ، عبر ذراعه ، وكان عليّ أن أعيد نفسي الى المجتمع ـ إن صحّت تسميته هكذا ، فليس بيني وبين هؤلاء الناس ، إلا المشابهة البشرية المشتركة ، لا التجربة ، ولا العوائد ، ولا اللغة .

أراقبُ الشامان ينثر رموزه على العشب السبط . إبرة في عظم السمك ، قطعة من طين النهر في شكل كرة غير منتظمة ، حفنة حبوب . وضع هذه الأشياء في دائرة رُسمت حوله بالعظم ، وأنا أنصت اليه ، وهو يبدأ الترنّح أماماً ، ووراءً ، مقتعداً الأرض ، مُطلقاً صوتاً نسوياً عالياً ، مثل الصوت الذي يستعمله الشيخ في حكاياته ، إلا أنه أعلى ، وأكثر لاأرضيةً ، وهو يطلقه في عواءات وصرخات أو في صفرات مديدة بطيئة ، تتماوج فوق الأرض . وأخيراً ، حين يهمد ، ويبدو نائماً ، تتفتح يداه أمامه ، ويأتي الشابّ الذي أصاب الغزال ، وذبحه ، ، الى طرف الدائرة ، حاملاً وعاء الدم . يصبغ بقليل منه جبهة الشامان ، مستعملاً سبابته ، ويلمس الشفتين المغضنتين ، ثمّ يسكب بضع قطرات في يدي الشامان . أما ماتبقّى فيسحبه الى هامش الدائرة ، ونحن نجلس خارجها في العتمة المتزايدة ، حين يبدأ الشامان يتكلّم بمقاطع قليلة يظل يرددها بصوته الخاص مع عواءات قصيرة للأصوات الأخرى ، بينها . فجأةً ، يستيقظ ، وينتهي كل شيء . لقد كان ، بينما نحن نراقبه ، في رحلة حلم الى الأصقاع القصيّة . كانت روحه هناك ، تتحرك

أسرع على السهوب المتجمدة عبر النهر ، في المتاهات العسيرة ، والصوت الذي سمعناه منه كان صوت الأرواح القطبية . والآن ، بغتةً ، يعود واحداً منّا ، شيخاً عادياً تماماً ، جائعاً ، ومتيبّس المفاصل قليلاً ، يمشي على ساقيه الملفوفتين ليساعدنا في إيقاد النار ، وفي ربط أغصان البتولا مع بعضها لتكون مأوى مخروطياً عالياً .

تساءلتُ : هل يراقب الولدُ هذا كله ؟ وماذا يفهم منه ؟ من أي نوع مخلوقات يظننا ؟ هل يعرف هو ، نوعه ؟

أنا أفكر بهذا ، طيلة مضغي قطع لحم الغزال المشوية الثخينة ، ومَصّي أصابعي نظيفةً ، وفيما بعد ، بينما كان الرجال يغنّون ـ صوت غريب يتردّد في الغابات الخاوية . أيسمعه ؟ أي مخلوقات يظنها تُصدر مثل هذا الضجيج ؟ هل اكتشف أنه يستطيع أيضاً أن يُخرج أصواتاً بتنفّسه ؟ هل اكتشف بدايات النطق ؟ أيتكلّم مع نفسه ، مادام ليس معه مخلوقٌ يشاركه ذهنه ولغته ؟ مثلي في هذا الأمر .

أنام متفكراً ، وأستيقظ نصف نائم لأرى نفسي وحيداً ، والنجوم فقط فوق رأسي ، ثمّ أروح في نوم أعمق ، وأحلم ، أو أستيقظ من جديد ، لست أدري .

لكنني أعي ، على أي حال ، أن حيواناً ما خرج من الظلام ، وهو ينظر اليّ ، أذئبٌ هو ؟ أهذا الذي أحسُهُ خطمُ ذئب ؟ غزال ؟ أم أنه الطفل ؟ فكما في الحلم المبكر ذاك ، أنا أواجه شيئاً ليس نفسي ، ولامن خيالي ، شيئاً ينتسب الى نظام كينونة آخر ، وإنني جئتُ من أعماق نفسي لألقاه كما لو على سطح مرآة . أهو الطفل فيّ ، أي طفل ؟ من أين جاء ؟ من هو ؟

أستيقظ . لاأحد . عند الطرف الآخر من النار ، أحد الشبّان ، ينقلب ، ملتفاً بالجلد ، في نومه ويتمتم بصورة غير مفهومة ، مقاطع ثقيلة ، غريبة ـ لستُ أعرف إن كانت هذه المقاطع بلغته ، أم باللغة التي يرددها النائمون .

لابد أن أحداً غطّاني اتّقاء البرد . أتمددُ لحظةً ناظراً الى النجوم التي تبدو مُسفّةً . وتذوب النجوم فيّ ، تتغلغلني . وعندما أستيقظ ثانية ، أرى الفجر .

جاء الشتاء ومضى . نحن الآن في عمق الربيع . الأيام ندية زرقاء ، والريح تهب رُخاءً ، لكن لابرعم نرى . الشجراء الخفيضة خضراء رمادية وليست سوداء ، والبحر ينبض ويتأجج . لكن لا حدائق لتتفتّح براعم ، لابنفسج ، لاأشجارَ ظل لتعرض أفنانها الشاحبة ، لاجداول لتبعث خريرها وتموّجها في نور الشمس .

كان الشتاء رهيباً ، يعجز المرء عن وصفه . لسبعة شهور ظلت الرياح تهب عاويةً عبر آلاف الأميال من السهوب المفتوحة ، وهي تسوّي الدغل ، وتسوط البحر زبداً أسود ، حتى يتجمّد المحيط كله أخيراً ، ليصبح بمقدورك أن تمشي عليه من الشاطىء ، لترى الأسماك بلا حراك ، في الأسفل . والبرك الآسنة التي تستقي منها النسوة الماء ، تجمد ، فيذهب الرجال في هذه الحالة ليقطعوا كتلاً ويحملوها الى البيوت لتذوب على اللهب . من المستحيل أن تخاطر في عاصفة الزمهرير ، فتخرج ، بلا قبعة ذات حواش ، ولفّاف من الفرو ، وقباء ، وجزمة ، وطماق ـ لكن ، حتى مع هذه ، كلها ، تتجمّد الأنفاس ، وتُشكل اللحية مُدلّيات ثلج تخزُ وترنّ . وكلامُ المرء يمكن أن يُقطع بطريقة ماء شربنا ، ويُذاب فيما بعد ، في دفء البيت ، إن تجرأ أحدٌ على فتح فمه في الخارج ، ليذكر الوقت فقط . نحن نتحرّك كما في الحلم ، كأن دماغنا استحال بلّورات صغيرة حادّة . وكأننا ، شأن الدببة والمخلوقات المماثلة ، قد زحفنا عميقاً في كهف ما داخل أنفسنا ونمنا ، نتحرّك فقط كأشكالٍ حلمية ، متيبّسين ، فاقدين البصر ، ندخل في حياة الآخر ونخرج .

ذهني يذهب ، باستمرار ، الى غابة الغزلان والطفل . كيف بإمكانه

البقاء على الثلج بين أشجار البتولا ، يمضغ أشنةً ، ويحفر في الجليد بحثاً عن فطر . أيمكن أن يظل حياً في هذا الفصل ؟ أترى الرجال مهتدين الى آثاره في العام المقبل ؟ أنا أتحرّق الى أن يخفف الجوّ من غلوائه ، حتى يكون بمقدوري أن أحثّ الشيخ ، ريزاك ، على تشكيل فريق ، والبحث عنه . إنه سرّي . وسأبوح به في الوقت . إنه الذي يُبقيني حياً في هذا كله . أنا أدفئه بأنفاسي . أم أنها أنفاس حيوان ما تلك التي تدفئه ، أنفاس ذئب أو غزال ، حتى لو كان ذلك في أحلامي ؟ أم تراه يسبت في الشتاء ، مطوّياً في غار ما ، مربوطاً الى استمرارية الأشياء بأنفاسه البطيئة فقط ؟ إن كان الأمر هكذا ، فكيف يطعم ؟ وبم يحلم ؟ أتراه يحلم ؟

إنه ولد طفولتي المتوحش . أعرف الأمر الآن . الولد الذي عاد اليّ . إنه الطفل .

حدثان أعطيا هذه الشهور البيض ، شكلاً . الأنباء الأولى في قريتنا ، التي نودي بها من طريق الى طريق ، وأُعلنتْ ضرباً على صنوج خشب ، عن أن الداسيين قد استولوا على بلدتين في الشمال وأحرقوهما ، وأنهم يندفعون الينا عبر النهر . الحدث الثاني الذي تلا الأولَ مباشرةً ، هو هجومهم علينا .

النهر ، قبل وقت طويل من نهاية العام ، بدأ يتجمّد . هذا النهر الذي يبلغ عرضه خمسة آلاف خطوة أمسى جسراً من الجليد الصلب ، ومئات الفرسان الداسيين تدفّقوا من السهل الشمالي ، وهم يندفعون ، مرعدين ، عبره . علينا أن نحرس أسوار قريتنا منهم ، وقد استدعيت أنا أيضاً لأكون في إحدى المجموعات ، بعد أن أُعطيتُ رمحاً وخوذة ـ أنا الذي عشت خمسين عاماً في إمبراطورية سلام مع نفسها ، ولم أتدرب يوماً واحداً ـ وأُرسلتُ لأقف وراء الحاجز الدفاعي في الهواء الليلي البارد ، مثقلاً بجبل من الفراء ، فلا يمكن التعرف عليّ .

كنت مأخوذاً بسخرية القدر هذه . باعتباري مواطناً رومانياً من صنف الفرسان ، وسليل شجرة محاربين ، مكلّفاً بحماية القانون الروماني ، وزهرة الحضارة الرومانية ، كنت أسخر من أفكار عتيقة مثل الواجب ، الوطنية ، والفضائل العسكرية . أما هنا ، وأنا في الخمسين ، فإنني أقف مستعداً في الطرف القصيّ من العالم المعروف . لأحميَ ماذا ؟ مائة أو نحوها من أكواخ الوتَل والطين . ثلثمائة غريب متوحش لايتكلّمون حتى بلغتي . وبالطبع ، جِلدي أنا .

ولقد حدث الهجوم . وليلة مجيء المغيرين كنت في الفراش . وكان على إحدى النسوة أن تهزّني لتوقظني من النوم . ولقد سمعتُ ليلتها أيضاً ، رعدَ حوافر الخيل على الجليد ، والصنوج الخشب تُقرع ، والأصوات في الظلام .

أشكال شبحية آتية من الشمال ، آتية من حلمي ، تعدو في قوس واسع من ضوء القمر ، كان ماءً قبل أسابيع قليلة فقط . خرجت متعثّراً . السهام أمطرت من السماء ، وسقطت على السقوف ، وأصابت مخلوقاً بائساً كان يحرس في زاوية الحاجز الدفاعي ، وقد سقط وهو يتلوّى . السهام مفوّقةٌ بالسُمْ . الجرح يتقيّح ويتعفّن ، ولثلاثة أيام ظلّ الرجل المصاب في حالة هذيان ، يتحسس طريقه ببطء الى المعاشب وراء النهر ، حيث تستقبله الأرض . طوال الليل ، كانوا يدورون ويدورون حول الحاجز الدفاعي ، يزمجرون ويعوون كالذئاب ، والسهام تتساقط . غادروا في الصباح ، وكان الدغل كله ، الى الجنوب الغربي يشتعل . سحبٌ كثيفةٌ من الدخان ارتدّت ، فوقنا ، سوداً ، مريرة برائحة الأشواك . لقد مروا ، متجهين ، الى مستوطنات الجانب الترّاقي . والآن ربيع .

كنت تكلمت مع الشيخ عن فريق بحثٍ (لديّ الآن من لغتهم ما يكفي لحاجاتي الملحة المعروفة) لكنه يبدو غير راغب في أن يُلزم نفسه . أهو

خائف ؟ أثمت معتقدٌ خرافيّ حول الطفل ؟ أكانت أغنية الشامان في غشيته ، التي اعتبرتُها نوعاً من مباركة صيدالغزلان ، أكانت في حقيقتها شعيرةً للطفل ؟ من أين يعتقد هؤلاء الناس أن الطفل جاء ؟ من الآلهة ؟ أيعتقدون بأنه منهم ؟ أهو كذلك ؟ أم أنه قد يكون أتى من المَعاشب في الشمال ، وأنه ضاع هنا في إحدى الغارات ؟

لم أكن أخبرت الشيخ بأنني أعرف الطفل ، وأنني اعتدتُ أن أكلّمه آن كنت ولداً في «سالمو» . كما لم أعترف له بأنني أريد الامساك بالولد والاتيان به ، بيننا . أريد فقط أن أتأكّد من أنه ظل حياً لفصل آخر ، وهذا مايراه الشيخ ، باعتبار أنهم يرونني مخبولاً على أية حال ، مهتماً دائماً بأمور لاتعني لهم شيئاً ، متفكّراً في شؤون هي في رأسي فقط .

لكن الشيخ ظل يوماً بعد يوم ، يقدم أعذاراً . فالحاجز الدفاعي يجب أن يُرمّم ، وأن عليهم القيام برحلة طويلة شمالاً الى غابات الصنوبر ليجلبوا الخشب . ثمّ يموت شيخٌ في القرية ، ويتعيّن على كل الذكور أن يؤدّوا رحلة جنائزية تستغرق يومين كي يروه يُدفن .

ثم هاهي ذي الأسماك تلبط . ولإسبوع كامل يظل الرجال يخرجون ، يومياً ، مع شباكهم ليصطادوها . وفترة أخرى ، يمضون فيها بقناديلهم ، ليصطادوا الحبّار . هل الشيخ ، ببساطة ، يسخر مني ؟ أعلينا ، شأننا من قبل ، أن ننتظر الخريف ؟

إنه الخريف . وغداً نذهب ثانيةً الى غابات البتولا ، نصطاد الغزلان . لاأجرؤ أن أذكر أمر الطفل . ركبنا كما ركبنا من قبل ، وقمنا بالتحويلة نفسها صاعدين الى الهضبة ، وخلال ستار الصنوبر حيث يمتطي الموت هياكل خيولهم . الفرق أن البرد حلّ مبكّراً هذا العام . الهضبة غائمة ، وضبابٌ رماديّ يدوّم أمامنا ، عبرها ، والأوتاد تقعقع وتتمايل وصيحات

الرجال وهم يدورون راكبين ، ناثرين حفناتهم من البذور ، يدبّقها الضباب ، فتنقطع وترتد الى حلوقهم .

في الطريق الى الغابات كانت السماء تنثّ رذاذاً . المسالكَ ممحوّة والأرض متشبّعة بالماء والخيول تبعث رشاشاً من الماء خللَ بُريكات من الضوء الأزرق اللامع بين الأوراق ، أو خلل غيوم رمادية ، قذرة . نحن نصطاد الغزلان ، نسلخها ، نقطع اللحم ونحمله في سلال . لاأثر للطفل . الرجال الآخرون ينظرون قلقين حولهم ، وهم مسرورون حين يكون بمقدورنا الابتعاد عن المكان .

أنا أجنُّ خيبةً وأسى . شتاء آخر ، كيف يستطيع أن يظل حياً ؟ كيف أستطيع أن أظل حياً بدون أن أعرف أنه لايزال هناك ؟ ربيعٌ آخر .

أنا أفهم كل مايقوله لي بهذه اللغة الخام ، هؤلاء الناسُ الجهلةُ الطيبون . لقد بدأت أعلّمُ حفيد الشيخ اللغة اللاتينية ، أن يقرأ ، ويلقي قصائد ، بعضها لي . إنه طفل ذكي ، لكنه نكدُ الطبع ، لايرى نفعاً في ما يتعلّمه . أعرفُ ، وأنا أستمع الى الشيخ ، الآن ، وهو يروي قصصه في ساحتنا الصغيرة ، ماذا تعني الأصوات المختلفة : إنها ريح الشمال ، إنها الذئاب ، إنها العماليق ، إنها أشباح المحاربين ، إنها الظُنبوب ، رأس مقطوع ، إنها قاع البحر ، قصص الشيخ خارقة ، لاتقارن بما بلغني من الاغريق ، لكنها متوحشة ، نوعٌ من اللعبة المبالغة التي لاتشرح شيئاً ، إلا أنها تحكي مباشرة عن كابوس المشهد في هذا المكان ورحلات حلمي عبره . إن خرافاتنا المتمدنة التي تحكي بأناقة عمّا نرى ونعرف ، تبدو ضعيفةً إزاء هذه الفكاهات الواضحة غير المعقولة التي يظل الشيخ يرددها ، إنها كالشتاء هنا . إنها تملأ العالم . إنها تجعل الرأس يطنّ ، والدمَ يخدر . تبدو حقيقةً لكنها لاتشرح شيئاً . أنا أرى بإيجاز ، وفي خطفات ، كيف يرى هذا الشيخ صديقي ، العالم . إنه مدهش . عارٍ ، قاسٍ . رهيب . مضحك . وبالرغم من هذا ، يبدو لي ،

يومياً ، أكثر نبلاً وتهذيباً من أي روماني عرفته . أنا ، بجانبه ، امرأة عجوزٌ متهسترة . بلا كرامة إطلاقاً .

الخـريف يبدأ ثانيـة . ثمـة دخـانٌ في الأشيـاء . ومن جديـد نذهب الى غابات البتولا .

للتوّ تقريباً ، في النور الذهب لنهارٍ خريفيّ لطيف ، والسمـاءُ متكسـرة في بُرك مطر بين الأوراق الصفر المذرّاة ، هاهو ذا ، يقف ساكناً ، أطول بعد هاتين السنتين ، بين أشجار البتولا المجرّحة . أنا مفعمٌ بهجةً . إنه هناك . إنه حقيقي . الآخرون يرونه أيضاً . إنه ملطّخ بالوحل ، ركبتاه وكوعاه ناتئة العظام ، وبطنه منكمش . ولدٌ قبيح في الحادية عشرة أو الثانية عشرة ، وعلى رأسه عش طيرٍ من الشعر الوسخ .

نحن نجلس ، خمسة منّا ، في حلقة ، نحتسي قليلاً من الحساء الخفيف الذي جلبناه معنا ، بينما الخيل تجول بين أشجار البتولا ، وترعى الأعشاب التي لاتزال ترفع رؤوسها من ركام الورق . إنه الأصيل . أصيلٌ ساكنٌ . كان الواحد منّا يمسك كوبه باليدين كلتيهما . نشرب ، ولانتحدّث . فجأةً ، كان الولد هناك يراقبنا . عيون الرجال سودٌ على حافة الكوب ، وأيديهم كابيةٌ . ننظر جميعاً . أولاً الى الولد ، ثم الى بعضنا ، ونتجمّد . حتى الخيول تتوقف عن الرعي وترفع رؤوسها الى زرقة الأصيل المائية ، متشممة ، وهي تحسّ بحضور آخر . أستطيع أن أسمع تنفّساً . كأننا جميعاً ، وللحظة واحدة ، مسحورون . وكأن الزمن توقّف . وأشعرُ أننا لو استطعنا الجلوس هكذا لمدة كافية ، متربعين على الأوراق ، بحيث نبدو مثل أي جزء من الغابة ، لو تركنا أرواحنا تخرج طليقةً ، وأصبحنا خشباً ، كُدسَ ورق ، أو أشنات ـ فلسوف يأتي إلينا . أعرف أن الآخرين خائفون . وأن سكونهم نوعٌ من الرعب . هؤلاء الرجال الذين لايخافون الفرسانَ المندفعين في الليل مع سهامهم المسمومة ونيرانهم ، الذين لايخافون الدبّ الوحشي وأنيابه المزبدة ، هؤلاء

الرجال خائفون من الطفل . أنا لست خائفاً . إن سكوني هو بسبب خوفي من أننا بمجرد رفع إصبعٍ ، أو حبْسِ نَفَسٍ ، قد نجعله يجفل هارباً .

وهكذا نجلس ، لكن كم سنجلس ؟ ـ ونحدّق في بعضنا . الطفل لم يجفُل . لكنّ حصاناً خفض رأسه ليقضم ، وسار بيننا ، وحين عبرَ كان المنفسَحُ بين أشجار البتولا خالياً إلا من النور .

أنا أكثر هدوءاً الآن . فهو لايزال هناك ، وهذا مايهمّني . وثمة وقتٌ للبقية . سنظل ليلتين في غابات البتولا .

في الليلة الأولى ، وعلى طرف حلقة النار تماماً ، أعددتُ طاس عصيدة : خليط حبوب ، مغلياً بماء آسٍ ، ومطيّباً بالعسل . ولساعات بعد نوم الآخرين ، أجلس ملتفاً بقباني ، مرهفاً سمعي لوقع خطىً على الأوراق . أعرف أنه يجب أن يأتي ليراقب . أعرف أنه يبدأ يبحث عنا ، كما نبحث عنه نحن . إنه ليحس بنوع من الحنين إلينا ، بنوع من الحاجة الى إرضاء نفسه عنا ، مَن نحن ، وما السبب في أن لنا هيأةً ، ورائحةً ، لاتشبهان مخلوقات الغابة الأخرى .

أتراه بدأ يتساءل عن نوعه هو ؟ هل حزر أن جزءاً منا ، في الأقل ، يشبهه ؟ مثل مانعرف نحن ، إنه في هيأته ، في الأقل ، منّا .

أنصتُ ، لكني لاأسمع شيئاً . يغلبني النوم وأنا لاأزال جالساً ، مستنداً الى جذع البتولا ، وأستيقظ مع الضوء الفضي الأول للفجر . أتعثّر لأرى الطاس . إنه فارغ . ثمة من جاء ولحسَ العصيدة . غزال ؟ أحد شياطين الغابة التي يعبدها هؤلاء الناس ؟ والطفل ؟ أُخفي الطاس تحت قبائي ، وأتظاهر بأنني كنت أقضي حاجةً ، لكن الشيخ يراقبني ويعرف . هو يعتقد أن هذا كله حماقة . وحماقةٌ خطرة . إنه يخجل كثيراً مني ، ومن غباء الكبر لديّ ، بحيث لا يجعلني أرى أنه يعرف . يأمر الشيخ ، الشبّانَ حوله ، بصوت عالٍ وأجشّ أكثر من المعتاد ، كما لو أنه يحاول إخافة الطفل كي يبتعد .

النهــار رائق ، ســاكن ، والغــزلان في كل مكان . والرجــال يصطادون ويذبحون خمسة أو ستة منها ، ويبدو مخيّمنا في المنفسح مثل دكان قصّاب . رائحة الدم تعمّ المكان ، والجلود معلّقة من الأغصان ، وقطع اللحم ـ الأوراك ، والأفخاذ ، وأنصاف الأضلاع مكدّسة ، جاهزة للتحميل . النسوة سوف يملّحنها ويذخرنها للشتاء . العمل يستغرق اليوم كله . سنبيت ليلة أخرى هنا ، وننطلق فجراً عائدين .

أعددت ثانيةً ، طاس العصيدة ، ونمت عند الجانب القصيّ من النار ، منتصباً بقوة ، مستنداً الى جذع شجرة ، مصمماً على ألا يغلبني النعاس .

لكني أنعسُ مباشرة ، وأحلم . إن مافكّرت به نصفَ تفكير ، أمس ، في الغابة ، ونحن نراقب الطفل ، هو أمرٌ صحيح . لقد تحوّلنا كلنا ، المجموعة كلها ، لنمسي بعضاً من الغابة . نحن فطرٌ . نحن أحجار ـ أنا أميزُ رفقتي . أنا بركة ماء . أحس بنفسي دافئاً في الشمس ، سيّالاً ، مليئاً بزرقة السماء . لكني مجرّد كسرة ضئيلة منها ، وأشعر ، بنعومة ، أن السحب تتغلغل فيّ ، وتُغلغل انعكاساتها . ومرةً... فُجاءة الأجنحة . العتمة تهبط بطيئةً . ونسمةً تُرعش وجهي . وحين مرّت العتمة عليّ بدأتُ أخاف . إن روحي تحوّم في مكان قريب ، وأعرف أنها ستعود اليّ آن أستيقظُ .

لكني أخاف فجأة من أن أكون مجرّد بركة مطر في الغابة ، أُحسُ بالليل يزحف عليّ ، وأحس بنفسي أبردُ وأمتلىء بضوء النجوم ، أُحسُ بالحرارة تنخفض . أتفكّر بما يمكن أن يكون تجمداً . أتخيلُ ذلك . لكن ، فقط عند تخوم نفسي . ، حين بدأت بلّورات الجليد الأولى تتكوّن مطقطقةً . الأمر مخيف . ماذا سيحلّ بروحي إذاً ؟ أنا أرقد في عتمة الغابة منتظراً القمر . ثمة خطى ، ناعمة ، قربي . غزال . وجه الحيوان ينحني عليّ . أنا ممتلىء

بالرقة له . لسانه يلمس بشـرتي ، ويلحس قليلاً . لقد أخذ شيئاً مني ، فيه لكني لم أشعر البتة ، بأني نقصتُ . إن إحساس بشرتي لخارقٌ . أنا أتكسّر في دوائر . بعضي يدخل في الغزال ، الذي يرفع رأسه بطيئاً ، ويبتعد على الأوراق . أشعر ببضعة مني تبتعد ، والباقي يسكن ثانية ، يستقر ، ويغدو صافياً . فجأة سألت نفسي : وماذا لو جاء ذئب ؟ ماذا لو أن اللسان التالي الذي لمسني كان لسان ذئب ، خشناً ، جشعاً ، يشربني حتى آخرقطرة ، ويتركني يابساً ؟ هذا ممكن أيضاً ، أتخيّل الأمر ، وأنا أسحب في معدة الذئب . أنا أتهيأ للأمر .

وقْع قدم آخر ، أكثر نعومةً من الأول . أعرفُ منذ الآن أنه الطفل . أراه منتصباً أطول من الغزال إزاء النجوم . لكنه ينحني عليّ جدّ قريب حتى لتُرجفُ أنفاسه بَشَرتي . يغرفُ قليلاً ، ويقطرُ نورُ النجوم من أصَابعه في نُدف لامعة تَسَاقَطُ عليّ ، ويشرب . أنا أتكسّر ثانيةً . الاضطراب مخيف . الأمواج تتكسّر صاخبةً على تخومي . وعندما أعود الى تماسكي يكون ذهبَ . أنا لاأزال أشعُ بنور النجوم . أنام . أستيقظُ .

العتمة لاتزال . الطفل ، أراه ، إنه يضع للتو ، الطاسَ ، على الأرض . إنه منحنٍ ، يمسكه بكلتا يديه ، وقد تهدّلت خصلات الشعر الخشن على وجهه .

يسمعني أتنفّس . إنه لايبعد عني أكثر من عشرة أقدام وتلتقي عيوننا لحظةً ، قبل أن يرمي الطاس . الطاس يتدحرج نحوي . يثبت على قدميه ، ويقف هناك ، حائراً ، كأنه غير متأكد ، ربما للمرة الأولى . الى أي العالمين يجب أن يفرّ ـ أيعود الى الغابة ، أم الى أي عالم جديد مهما كان ، عالم تشمّمه ، ولمسه ، وأدخل في نفسه شيئاً منا . لقد أكل من طاس فخار ، صنعه الناس ، على دولاب . ولقد أكل حَبّاً بُذِرَ ، وحُصد ، وطُحن ، وغُلي ، وحُلّي بالعسل .

لقد مرّ شيء بيننا ، ونحن نتواجه في الظلام . أعرف أننا تحدثنا . في لغة وراء الألسنة . في السنة القادمة ، لاحاجة الى اصطياده . هو سيبحث عنا .

الآن ، فقط ، يتراجع ببطء ، مبتعداً في الظلام . قدماه العاريتان تنسحبان جَرّاً على الأوراق . وعليّ أن أنتظر شتاءً كاملاً يمضي .

حدث هذا كله كما عرفتُ أنه سيحدث .

انقضى العام سريعاً . وأنا عدت متماسكاً قوياً ، وتوقفت عن نَدب حظي العاثر . صرت أذهب في جولات طويلة في الدغل المليء بالحيوانات الصغيرة والحشرات ، وكلها يستحق الملاحظة . أهبط الى الشاطىء وأتحدث مع الصيادين ، بينما البحر يطحن ويفرقع الحصا الأسود الناعم . البحر في هذه النواحي مليء بأسماك غريبة ، كلها جميلٌ بطريقته ، كلها مخلوقٌ كاملاً حسب حاجاته ، وكل تفصيل من تشريحها نافعٌ ، وضروري ، ومرغوبٌ فيه لهذا السبب ، حتى لو كان بين هذا السمك مايُرعب . لم أعد أجد خطأ في الخليقة . وتعلمتُ أن أتقبّلها . أن فينا لقوةً تعرف غاياتها . هذه القوة هي التي تدفعنا الى أمام ، الى حيث يجب أن نصبح في النهاية . وعلينا فقط أن نعي الإمكانية ، والروح في داخلنا هي التي تجعل الإمكانية فعلية بطريقة ما . هذا هو المعنى الحقيقي للتحوّل . إنه هو المسخ الحقيقي . إن ذواتنا اللاحقة متضمّنةٌ فينا ، كما الأوراق والأزهارُ في الشجرة . علينا فقط أن نجد الربيع ونُطلقه . هذه التغيرات بطيئة الى حد لايمكن تخيله . وهي تستغرق أجيالاً . لكن هذه السيرورة تفعل فعلها . ونحن نتيجُ جيل بعد جيل أراد أن تكون هكذا . وأنت ، أيها القارىء ، ماأردنا ، نحن . أأنتم ، الآن آلهة ؟ هل وجدتم أجنحة ؟

كل يوم أخرجُ مع الشيخ . إنه أقرب صديق لي . كم غريب أنه كان

عليّ أن أترك قومي لأجده . علّمني كيف أحوك شبكة ، وبدأت أتقن هذا . هناك أنواع مختلفة من الشبّاك ، ومن الفخاخ أيضاً ، لمختلف أنواع السمك . وثمة صنارات متنوعة أيضاً . وأنا سعيد لأني أتعلّم هذا كله . الجميلُ هو الطريقة التي يناسب بها ، شيء ، بصورة كاملة ، شيئاً آخر ، وجميلٌ أيضاً ذكاؤنا في العثور على العلاقة الضرورية بين الأشياء . إنه لنوعٌ من الشعر ، أمرُ الشباك والصنّارات ، هذه التماثلات القديمة . بدأت أيضاً أجمع البذور في جولاتي بالدغل ـ هناك أزهار مستنقعات صغيرة ، صغيرة جداً بحيث لاتكاد تراها ، وحين أعود أدفعها في الأرض بسبّابة قوية ، فتنبت . لقد شرعت أصنع بستاناً مهما كان بسيطاً .

وطوال الشتاء أتدرب مع مجموعتي من الحراس ، واكتشفت فيّ ، ذلك الأمر الذي يجب أن يكون أبي عرفه ، مهما أنكرته ، وهو قسمات الجندي . كم تغيّرتُ! أي ذات مختلفة جداً بدأت تطلع فيّ!

أنا الآن أفهم كلام هؤلاء الناس مثل كلامي تقريباً ، وأجده مثيراً للمشاعر بصورة غريبة . إنه لايشبه ، على الإطلاق ، لساننا الروماني ، الذي صُممت نهاياته لتعبّر عن الاختلاف ، عن أضأل دقائق التفكير والشعور . هذه اللغة معبرة أيضاً ، لكنها تعبّر عن الحياة النيّئة ووحدة الأشياء . أعتقدُ أن بمقدوري كتابة قصائد بها . وحين أرى العالم من خلال هذا اللسان الآخر فإنني أراه بصورة مختلفة .

إنه لعالمٌ مختلف لكنه يبدو أقرب الى المبدأ الأول للخليقة ، أقرب الى القوة التي تصنع الأشياء كما هي وتغيّرها الى ماستكون عليه . بل شرعت حتى في أن أجد عيني تبتهج بالأشكال البسيطة لهذا المكان . والمدى الأضيق للألوان ، والخطوط القاسية للجرف ، والدغل ، والمنفَسح ، والضوء المائي . الآن ، والربيع لايمكن التعرف عليه بالبراعم والأوراق الجديدة على الأشجار ، فإن عليّ البحث عنه في نفسي . أشعر

بالجليد ، فيّ يتكسّر . أشعرُ بنفسي أتحرّر وأتدفق ثانيةً ، عاكساً العالم . وهذا مايعنيه الربيع .

كما أنني في محاجحات ليالي الشتاء الطويلة ، ربحتُ معركتي مع ريزاك . ففي الخريف ، حين تعرى أشجار البتولا ، سوف نخرج ونجد الولد ، وفي هذه المرة ، سنعود به ، إن تحقق ذلك دون أذى .

لدى ريزاك شك واحد . إذ عليه الحصول من الشامان على تأكيد بأنهم يستطيعون المجيء بالولد الى القرية ، دون أن يغيظوا بعض أرواح الغابات .

أعتقد أن مايخشونه ، هو أنهم بإدخالهم الطفلَ الى القرية ، يكونون بلا دفاع إزاء الكائن الذي ربّاه وحماه . ربما كانت الذئاب التي تطوف بالحاجز الدفاعي شتاءً ، عاوية أعلى من الريح ، كُتلاً رمادية تشبه أرواح السهول الشتوية ، هزيلةً ، حديدية الأنياب ، متضوّرة من البرد . ويتساءل ريزاك إن كان بمقدور الولد أن يحوّل نفسه ذئباً في شهور الشتاء ؟ أكذلك كان يظل على قيد الحياة ؟ وأين سنكون آنذاك ؟ أليس في استطاعته أن يتسلّل الى الخارج ليلاً ، ويفتح البوابات لإخوته ؟ أم أن روحاً أكثر وحشيةً ورهبةً من الذئاب قد ربّاه ؟ قد يكون حيواناً لانعرفه ، ولم نره . ماذا لو كان على اتّصال بذاك ، وإن له قدرة اتّخاذ هيأة لمخلوقٍ نتخيّل فقط شكله ورعبه ، وليس لنا سحرٌ يردعه ؟

أنا أجادلُ بأنه ولدٌ ، طفلٌ ذكيٌ ، بشرٌ مثلنا ، ويصدّقني ريزاك ، أو يتظاهر ، لأن لديه رغبةً عظيمةً ، بحضوري ، في أن يبدو أرفع من قومه ذوي الخرافات ، ومعقولاً مثلي كما يعتقد . لكنني أضلله في الواقع . أنا أعرف أنه ليس ولداً عادياً . إنه الطفل .

الصيفُ يأتي ، ويزهر بستاني . أزهارٌ بريةٌ ، معظمها كنت وجدته في المَناقع أو بين سيقان الشوفان ، أو في بقعتنا الصغيرة المحروثة . من يدري

من أين هبّت هذه البذور حتى وصلت هنا ؟ العنايةُ جعلتها قوية ، والتغذية المنتظمة بالتراب العضوي والسماد أظهرتْ لونها ، أزرق ، أحمر ، أصفر .

النسوةُ يرين حماقةً لاتُصدّق في أن يُبذل جهد كهذا على شيء لانستطيع أكله ، لكنهن يحببن الألوان ، وسعيداتٌ الى حدّ أنهن يزودِنني ، يومياً ، ماءً قليلاً من مخزوننا الشحيح . أعتقد في الغالب أنهنّ يمازحنني كأني طفل . كلُ ماحولنا عدا ذلك ، موجودُ تماماً للاستعمال . النسوة لايستعملن حلياً . ومايخطنهُ ذو خيوط قوية ، لكن بلا غرزة واحدة جميلة . أزهاري فقط هي اللعوب ، جزءاً من حياة قديمة لم أستطع أن أهجرها كلّياً . فقط الوقت الذي أصرفه عليها ، هو لعبُ .

لدى هؤلاء الناس ، اللعبُ مفهومُ جديد . كيف لي أن أجعلهم يفهمون أنني حتى قدومي الى هنا ، كان اللعب الشيء الوحيد الذي عرفته ؟ كلُ ماثمّنته ، من قبلُ ، كان ثميناً لأنه عديم الفائدة ، ولأن الوقت المصروف عليه لم يكن مطلوباً ، بل كان موهوباً مجّاناً ، ولأن اللعب يعني أن تكون حراً . أظن كلمة حُرّ ليست موجودة في لغتهم . لاشيء هنا حرُ من طبيعته ، ومن قانونه .

لكننا أحرارُ بعد هذا كله . نحن ملزمون لابقوانين طبيعتنا ، وإنّما بالطرائق التي نتصوّر أننا نتحرّر بها من تلك القوانين بدون أن نكون عنيفين إزاء كينونتنا الأساسية . نحن أحرارُ في أن نسمو بأنفسنا ، إن كنا نملك الخيال لذلك .

أصصُ زهوري الصغيرة لها من التخريب هنا ، مثل ماكان لقصائدي في روما من تخريب . إنها البداية . والتغيرات الأولى ، أعرف أنني سأجد في أحد الأيام ، واحدةً من نسائنا تتوقف وهي تعبر الساحة حاملةً كيسَ حبوب ، كي تشمّ واحدةً من أزهاري المزوّقة . وهي ستخطو ، بدون أن تعلمَ ، خطوتها الأولى في عالم جديد .

في غضون ذلك ، لاأفكر إلا بالطفل . والبقية ملءُ وقت فارغ ، يمضي الصيف وزهوره . يؤتى بالحبوب لتدرس ، وتخزّن ، الخريف ثانيةً .
ننطلق لنأتي به .

لاأرغب في أن أروي كيف حدث الأمر . فباعتباري جباناً ، لم أشارك في المطاردة ، وكنت أفضّلُ ألا أشهدها . استندت الى واحدة من أشجار البتولا ، وقد جعلت يديّ على أذنيّ ، وتركتُ الآخرين يفعلونها عني . الخيول الضخمة تندفع في الغابة ، مهشّمةً كديسَ الورق بحوافرها الحديد ، والرجال يولولون ويتصايحون ، شاقّين سبيلهم في دوائر ، بحيث أن الطفل ، وقد دفع هنا ، وهناك ، في النَبت الكثيف ، صار مشدوهاً تماماً ، بالصيحات الآتية من كل الاتّجاهات ، وبالأشكال الشبحية المندفعة من كل أجزاء السماء . وعندما تعثّر في المنفَسَح ، وتوقّف أمامي ، كان في غاية الذعر ، منهكاً ، نصف مجنون ، كتفاه ممزّقتان تدميان حيث تعلّقت به الفروع ، وجسمه ملطخٌ بالوحل . وحين وقف هناك ، وقد أحاط به الرجال أخيراً ، أطلق فمه عواءً رهيباً لم أسمع له مثيلاً من فم إنسان .

لكن حين مال أول الشبان عليه ، من الخلف ، اكتشف فجأة قوة جديدة من الطاقة تنطلق من قبضاته وقدميه وأسنانه ، حتى كتم الشاب فمه ومنخريه بيدٍ قاسية ، معتصراً أنفاسه منه ، فصار الآخرون قادرين على الامساك به وربطه بالسيور . العينان فقط ظلّتا تدوران وحشيّتين ، وفكّرت وأنا أرى التشنّجات التي خضّت جسمه بأنه قد يكون في نوبة .

وضعت يدي عليه ، فانبعث هسيسٌ متوحشٌ من منخريه ، وازدادت تشنّجاته . أخيراً تركناه وشأنه ، مربوطاً مثل خنزير ، تحت شجرة بلوط ، بينما بدأ الشامان طقسه . ويبدو أن الغناء العالي لصوت الشامان الآخر ، الصوت القادم من القطب ، قد هدّأه . كأن الشامان كان يغني الوحشية منه ،

وهو يقودها شمالاً في غشيته الى حيث الدائرة القطبية للبياض الأبدي ، ويهبط بها خلال ثقب حفره عَظم سمكة ، الى الجليد . عندما أفاق الشامان من غشيته ، وخرج من دائرته ، كان الطفل نائماً ، وظل نائماً طيلة رحلة العودة ، مطروحاً الى الأمام ، على سرج الشيخ ، وواصل نومه ليوم كامل بعد عودتنا .

أي موكب غريب كنّا نبدو ، صاعدين المنحدر الطويل من المستنقعات ،في شمس الأصيل ، وضوء الخريف يغمر بطائح النهر ، والخط الأسود الطويل للجروف ، التي يرقد البحر وراءها ، وهويلتمع ، منبسطاً رمادياً . ترك الأطفال تخويضهم في البرك وركضوا متصايحين خلفنا ، ناظرين بعيون متّسعة . والنساء اللائي يجمعن ثيابهن من العلّيق ، جئن ووقفن يراقبننا ، وأذرعهنّ ملأى بالغسيل . ملتفّات بشالاتهن . فلا تبدو إلا عيونهنّ ، شائعةُ القبض على الولد سبقتنا . الجسم النحيل ، في حجم الغزال ، المطروح عُرضاً على حصان الشيخ ، ربما كان هامداً ، ناشف الدم والروح ، مثل المفاصل التي كنّا آتين بها الى البيوت ، على الخيول الأخرى .

لكن الأنباء التي وصلت بالفعل ، تقول أن المخلوق ، كائناً ماكان ـ ولداً ، ذئباً ، إلهاً صغيراً ، قنطوراً ـ هو على قيد الحياة .

لقد قبلته القرية داخل أسوارها . وهذه هي البداية فقط .

3

ماذا فعلتُ ؟

الطفل يرقد ، وهو لايزال موثوقاً ، في ركن من الغرفة التي تواجهني . النسوة منذ الوهلة الأولى ، رفضن أن يلمسنه . ويتعيّن عليَّ أن أغسله إذا ما وسّخ . هن يُغددن طعامه ، عصيدة دقيق محلاّة بالعسل ، لكنهن لايتخطّين عتبة الغرفة . أفكُ وثاق يديه ، وأترك الوعاء ، منصتاً اليه عند الباب وهو يسحب نفسه على القش ، يرشف العصيدة ، ناخراً مثل حيوان جائع . هو يئن لكنه لا يبكي . عيناه تظلان جافتين ، ولاشيء كالنحيب البشري يصدر منه ، ولا أن يسلم نفسه للدموع التي قد تحررُ الطفل فيه . الأنين يأتي من مكان ما في أعالي رأسه ، وقد تعلمه من أحد الحيوانات . يظل يئن ساعات وساعات . ولكي يريح نفسه ، ومثل مايفعل بعض الأطفال حين يمصّ إبهامه ، فإنه يستثير نفسه دون خجل ، بيديه ، حتى يبلغ سلسلة من الارتعادات الصغيرة ، مثل مارأيت القرود تفعل ، ويعيد الأمر مراراً ، حتى تنهكه التشنّجات فيهدأ ، ويقعي في الزاوية ، ساحباً ركبتيه الى أعلى بصورة حادة ، مزموم الفم ، أو يتكوّر على القش ، ركبتاه تحت حنكه ، وكوعاه بينهما .

نقضي ساعات ، لانفعل فيها سوى أن ينظر أحدنا الى الآخر . وليس

لديّ أي فكرة عمّا يعتمل في نفسه من مشاعر . إنه لا يبدي علائم اهتمام بأي شيء أفعله . أنا أكتب قليلاً . آكلُ . أرتق تمزقاً في قبائي . إنه يحدّق لكنه لايرى . حين لمسته للمرة الأولى ، في المنفسح ، حاول أن يعضّني بقواطعه الحادّة . والآن يتقبل كل ما أفعله بسلبية بدأت تقلقني . أنا أخشى أننا قد نكون قتلنا ، بالفعل شيئاً فيه . ويعتريني خوفٌ رهيب من أنه قد يموت ـ من أن ماجئنا به الى هنا ، جزءٌ حيواني منه ، يمكن إسكانه وإطعامه لفترة ، وإبقاؤه معنا بالقوة ، لكن فقط الى حين يدرك أن الروح قد ذهبت ، انسلّت بعيداً خارج ذراعي الشاب الأول الذي اصطاده وأمسك به ، أو أنها تبددت خارج جسمه في تلك الرقدة الطويلة الأولى ، وهذا أسوأ .

انظر اليه ينام . أطرافه تنتفض مثل أطراف كلب ، مع ارتعادات لا إرادية ، صغيرة ، داخل الفخذين . أهو يحلم ؟ لو استطعت فقط أن أتأكد من أنه كان يحلم ، إن مايتعيّن عليّ الاتصال به أخيراً ، وتتبّعه ببطء عبر سلالم الكينونة فيه ، لايزال موجوداً هناك . يجب أن أعرف أنه يستطيع أن يحلم . يجب أن أطمئن نفسي أنه قادرٌ على الابتسام ، قادرٌ على البكاء .

إلا أني لم أصفه حتى الآن .

هو في حوالي الحادية عشرة من العمر ، طويل ، قويّ البنية ، مهزولها ، مع تضخّم ونتوء في مفاصل الكوع والركبة . على ذراعيه وساقيه قروح ، وندوب قديمة ، تبدو كأنها تشويهات للون اللحم ، بُنّية تحت الصفرة . الأطراف خفيفة الشعر . والصدر بلا شعر . لكن على امتداد العمود الفقري خطّاً من الشعر ، محمراً في لونه كالثعلب ، وهذا ما أرعب النسوة ، وجعلهنّ يمتنعن عن لمسه ، مع أن الظاهرة شائعة بما يكفي . فبإمكانك رؤيتها عند الأطفال الصغار في كل مكان ، وهم يلعبون عراةً على عتبات المنازل ، أو حين يتراشقون في الصيف بالماء ، وهم تحت الرذاذ . وعادةً يمر الأمر بدون اهتمام . فقط عند هذا الولد ، صار لدى النسوة ، نوعاً من علامة . ذلك ،

والقدمان المفلطحتان المتصلبتان بسبب كونهما مكشوفتين في كل ظروف المناخ . أظافر القدمين مهترئة ، وباطن القدم صار ثخيناً ذا قشرة عميقة ، ربما مثل صحن فخّار ، لكنها لاتشبه ، بأي طريقة ، إلا القدم العادية . وإنها لشائعةٌ سخيفة تلك التي جاء بها الولد لولو من القرية ، والقائلة بأنه مغطى بالشعر ، وأن له حوافر . سحبت الولد هذه العشية ، وجعلته ينظر الطفل ، ويخبرني مارأى . لكنه كان أشد ذعراً من أن ينظر كما يجب ، وأظنه لم يقتنع مع أنه رأى ما تمكن رؤيته . إن مايتخيّله أقوى بكثير من الحقائق .

أعرف مايفكّر فيه . هو يعتقد أنني سحرتُ ، بطريقة ما ، حوافر الطفل ، وجعلتها قدمين معوقتين لأخدعه ، أو أنني سحرته .

تصورت أن الولد ، باعتباره في عمر الطفل ، ربّما كان لديه اهتمامٌ خاصٌ به ، وتعاطف ما إزاءه . لكن لم يكن لديه شيء من هذا . كان ينظر الى الطفل مستنكراً ، كأنه يوشك أن يُستبدل هنا بسواه ، وكأن ـ أهذا هو الأمر ـ الطفل قد يسرق روحه ، وهو نائم . هؤلاء الناس يعتقدون عميقاً بالسائرين في نومهم ، وبسارقي الأرواح . هل يشكّون ، كما بدأت أفعل ، بأن الطفل قد فقد روحه ، وبينما نراه متكوّماً نائماً في زاويته ، قد يتمكّن مثل الشامان ، من مغادرة جسمه ، من خلال الجدران ، الى الغرفة الأخرى ، والدخول في جسم لولو بينما هو غائب في إحدى رحلات الحلم التي اعتاد الأولاد الصغار أن يقوموا بها ، داخل غابات الصيد ، أو النهر ؟

أعرف أن العجوز وأمّ الولد تشجعان في هذا ، بسبب تأثيره في الشيخ . لكن ريزاك ، لسبب أجهله ظلّ سَنَدي في الأمر . ضد النساء ، وضد الشامان ، الذي جاء مرة ليتفحّص الطفل ، وفي تلك المناسبة رفض أن يغني ـ دليلٌ آخر على النساء يجهرن بالكلام ضدي ، ويناصبنني العداء . الشامان والنساء ، طبعاً ، في صف واحد .

هكذا نجلس طوال النهار في شبه ظلام .

توصّلت الى أن أحزر قليلاً ممّا يفكّر به الطفل عن طريق ملاحظة ملامحه . لكننا لم نفلح في التواصل ، مثل ماحدث ، من قبل ، حين تكلم واحدنا مع الآخر في الغابة . كأن روحه التي تكلّمت معها آنذاك لم تعد حاضرة . أراقب الفم بأسنانه الصغيرة الكسيرة . إن له طريقة في سحب شفتيه الى الخلف والتنفّس بحدّة كأنه يتألم ، مع أنه يؤدي الحركة ذاتها ، كما لاحظتُ ، حين يهيّج نفسه ، وفي هذه الحركة تتكشّف بنيةُ العظام الغريبة ، الخدّان المرتفعان ، الحنك المدبب ، خطوط الفك . أراقب العينين أيضاً . إنهما فاحمتا السواد . وغائرتان . الحاجبان يميلان الى أعلى . والشعر الذي غسلناه وجززناه قليلاً ، في سواد المداد ، مسترسل ، خشنٌ ، لا حريري ، ولاناعمٌ ، مع أن سبب هذا يعود الى سوء التغذية ، أو لحالة نفسه الهابطة ، أو لأن نفسه لم تعد هناك . لاحظت ، سابقاً ، كيف أن الشعر يغتذي من الروح ، فيلتمع ، أو يخبو ، وبخاصة عند المرضى . هو لايزال ، بالرغم من حكّنا وفَركنا ، أقل من نظيف . كأن الأرض تغلغلت عميقاً في جلده حتى اكتسب لونها . ربما كانت أوساخ الجروح القديمة سبب الندوب البنية على أطرافه . إنه ليس جميلاً ، البتة ، كما كنت تخيّلت الطفل ، لكني مليء بالعطف والشفقة عليه ، وبحاجة الى أن أحرره في جسم أنقى ، وذلك مثل ألم أعانيه .

أفكر وأفكرُ . أي خطوات تلزم ؟ كيف يتعيّن عليّ أن أبدأ ؟ أعرف أن العطف هو السبيل ـ والوقت . أن أكشف له أولاً ماهو عطفنا ، ومانوعنا ، ثم أن أقنعه بأننا من نوع واحد . من هذا ، يجب أن يكتشف ما هو .

لكنّا بدأنا بداية سيئة جداً . كيف بمقدوره أن يرانا إلا قساةً ؟ أي من الوحوش فعل به مافعلنا ؟ أي من الوحوش كان سيطارده على صهوات الخيل ، ويربطه ويحمله بعيداً عن كل ماعرف وألفَ ؟ ثم هناك عداوة الولد

الذي قررت أن يظل بعيداً عنه . وعداوة النساء . وبالتالي ، عليّ أن أفعل هذا كله ، بنفسي . عليّ أولاً ، أن أكون الوحيد الذي له علاقة به .

أفكرُ ، على نحو غريب ، بالذئب الذي رأيته في حلمي ، الذئب الذي هدّدَ بامتصاص ماء كينونتي كله ، وبدأت أخاف .

الأسابيع تمر . وأنا لم أعد أترك الغرفة ، الآن حين تأتي النسوة بطعامه . كان في أول الأمر محترساً ، كأني نصبت له فخّاً ، كما فعلت من قبل . فهو يتجه الى الطاس ، يشمّه ، يفحصه ، يتناوله بيديه ، وطيلة أكله ، أبطأ من السابق ، يظل يراقبني من حافة الطاس ، بعينيه السوداوين العميقتين ، اللتين تبدوان هذه الأيام ذواتي نقاط حمر . وبعد أن ينظف آخر الطعام بإصبعيه ، يدحرج الطاس على الأرضية ، ويسحب نفسه عائداً الى زاويته ، ويجثم رافعاً ركبتيه ، ربّما انتظاراً لما قد أقوم به من حركة . أما الآن فهو يأكل غير منتبه إليّ . كأني لست هناك . ناخراً وهو يأكل .

كما أني قد جئت بحشيّتي القش الى الغرفة ، لأنام في الزاوية المقابلة . لقد اعتاد هذا أيضاً . وبدأت أشعر أني أتواصل معه ثانيةً ، مع أن من المستحيل أن أعرف متى حدث هذا التواصل . ربّما حدث وأنا أغسله . فهو يستسلم إلى ذلك بسهولة كافية ، بالرغم من أن هذا لا يعني قبوله بأن يُلمس في أي جزء من أجزاء جسده الحقيقي .

ربما حدث التواصل في لقاء مصادفة بين عيوننا ونحن نتلاحظ بصورة متقطعة . أو أنه حَدث في المنام ، ونحن نتحرّك في المنام بالواسطة السائلة ، كأننا نطفو معاً في بركة . لقاءٌ عابرٌ لحلم بآخر ، فيضٌ في نومه ، أو فيضُ نومه في نومي ، في نقطة لايعرفها الذهنُ المستيقظ ، أو في إثارة جزء من التيار غير المرئي بينما أنا أكتب ، وأغمس قلمي في الحبر ، ويداي تتحرّكان على الرقّ ، أو حين أسحب الموسى على ذقني . ربما اصطدم بأحد هذه الأمور ، فأحسّ به . من يدري ؟ لكني متأكد الآن من أن التواصل قد

حدث . فهو لم يعد يئنّ ، ولايترجّح وراءً وأماماً على ركبتيه ، مُصدراً زمجراته الصغيرة من مؤخّر حلقه . إنه يراقب . وأبدأُ أعتقد أن ماسأسمّيه ذهنه قد عَلِقَ ، وشرع يطلّع في الغرفة . أنا أشعر به . إنه لهناك أخيراً . إنه هناك . وقد بدأت عملية تَبَدِّيه خارج نفسه تعمل بذاتها .

اليوم وأنا أغسله ، وضع أنامله ، بنوع من الفضول الخجول ، على ظاهر يدي ، متحسساً مادّة البشرة ـ ثم ارتدّ سريعاً ، كأني سأعترض وأعاقبه . كان التأثير غريباً ، ومخيفاً قليلاً . كأن حيواناً خرج من الظلام ولمسني بلسانه . هل بدأ يحسّ أخيراً بانطباعةٍ ما عن كينونته ؟ أيعني هذا ، بالنسبة إليه ، أمراً مثل لمس انعكاسه في المرآة ؟ أتساءل إن كان لديه أي مفهوم عن جسده ، ماهو ، ما هيأته ، ماأبعاده ، كيف يحتلّ مكانه الصغير من الكون ؟ أينبغي أن يتخيّل جسده أولاً ، وبعد هذا ، فقط ، تأتي معرفة ماهو ؟

ثمت ذكاء . أنا أشعر به . والآن ، أكثر فأكثر ، وأنا أمضي في بعض عملي ، كأن أقرأ مثلاً ، فأدرك أن في الغرفة مركزاً للطاقة منفصلاً يُربك أفكاري ، ويرسل تياراً معاكساً يتجه مثل أمواج ضوء نحوي ، ويتكسّر على حافة وعيي . أعرف أن الغرفة ملأى بأحاسيس ليست أحاسيسي ، حَسْبُ ، وبأفكار ليست لي ، تتواثب في الجو الساكن الرطب للضحى ، حيث أجلس وأنا أكتب ، والولد متوتّر مثل نابض ، يَرقب من زاويته ـ إنها بدايات قلق الذهن ، قلق الجسد ، إنها اختلاجات حياة جديدة فيه .

إنه طفل ، على أي حال . وهو يحتاج الى نشاط . جسده يحتاج الى التعبير عن نفسه بالحركة ، وذهنه يحتاج الى أن يقترب من الأشياء ، ويلمسها ، ويختبرها .

الآن أمضى الطفل ، هنا ، اسبوعين . بعد تلك الأيام الثلاثة الأولى

حين نام ، وحاولت روحه أن تدفن نفسها في الأرض ، وهذه الأيام الأخيرة حين عاش في حالة نصف النائم ، بعد الأيام كلها ، بدأ ينتقل من جديد الى اليقظة ، الى الانتباه الكامل لفتوته . أمس ، وأنا خارج من الغرفة لفترة وجيزة ، بدا أنه لمس لوازم كتابتي . كان الحبر مُراقاً . مسحت الحبر ، بدون أن أبدي أي علامة تدلّ على أني عرفت بأنه كان يعبث بالأشياء . ملأتُ الدواة ، ووجدت موضعي من الرَّق . وكدتُ أنفجر ضاحكاً لرؤيتي لسَانَه أزرق . اليوم ، وقد خرجت من الغرفة أيضاً ، وقفتُ خلف الباب ، مباشرة ، وراقبتُ . سحبَ قدميه نحو لفّة الرَّق ، وحدّقَ فيها ، وخمشها بسبّابته ، ثم خفض رأسه وتشمّمَ . يجب أن يكون اندهش كثيراً لأن اللفّة لاتزال تحمل رائحة الجلد الحيواني . افتتنَ ثانيةً بالحبر . تشمّمه أيضاً ، لكنه اعتنى بألا يريقه . تناول القلم بيده ، وكان دقيق الملاحظة بحيث أمسكه بطريقة غير ماهرة ، لكنها صحيحة ، بين الإبهام والسبّابة . بدا معجباً بنفسه . غمس القلم في الحبر ، وهو يعاني صعوبة في أن يُدخل القلم المتوازن بين أصابعه ، في الفتحة ، انحنى على الدواة . وبدت على وجهه نظرة التركيز البشرية الخالصة ، تلك التي يراها المرء على وجوه الأطفال الصغار ، وهم يحاولون للمرة الأولى أن يرسموا ، أو يخربشوا للكتابة ، أو ينظموا خيطاً في إبرة ـ العينان مثبتتان ، اللسان مدبب في زاوية الفم ، يتحرك مع كل إشارة من اليد ، كأنه أيضاً أحد الأطراف التي يجب أن نستعملها نحن البشر ، إحدى وسائلنا في ولوج العالم ، وفي تحريك أشيائه وتغييرها . أمن هنا يبدأ الكلام ؟ في حاجة اللسان تلك الى أن يكون فعالاً في العالم ، كاليد بين الأشياء ، تمسك ، وتدفع ، وتعيد الصنع ؟

وفي مراقبتي ، خلف الباب ، محاولات الطفل الأولى ، التعاملَ مع أشياء عالمه الجديد ، وجدتُ عينيّ مبتلتين بالدموع .

ثمت شيءٌ في إنسانيّتنا ، في الدخول البطيء للمخلوقات من نوعنا ، الى كل ذلك الذي اكتشفناه وصنعناه ـ الى أنفسنا ، والى العالم من حولنا ـ إنه لمؤثر دائماً مثل هذا ، فالمرء يحسه في جهود الطفل الأولى ليدفع نفسه أعلى ، ليدفع نفسه تلك الخطوة الى أعلى التي يجب أن تكون استغرقت لدى أسلافنا قروناً ليتخيّلوها ، ويحلموا بها ، ويجدوا الأطراف لها . أو في وضع طابوقة فوق أخرى ، للمرة الأولى ، بصورة متقلقلة ، كي يبنى برجٌ صغيرٌ ، بدايات مدينة . كل تلك العصور من الاكتشاف البطيء ، أعاد الطفلُ العيش فيها ، خلال شهور قليلة حسبُ ، وهو يستفيد من تجربة لا يستطيع البتة أن يكون امتلكها ، والتي يجب أن تكون كامنة فيه ، وفي حيوانات تحت حياته ، لآلاف من الموتى طويلاً ، هؤلاء الذين جلب وعيهم ، معه ، بطريقة ما ، الى العالم . كم هو مؤثرٌ ، إذاً ، أن أرى طفلي ، يصنع الاكتشافات التي ستؤدي به ، بعد سنين من النفي ، الى ميراثه ، الى المجتمع الذي يخصّه .

الآن ، تركت يديه حرّتين ، ولعدة أيام . أخيراً ، هذا الصباح ، فككتُ وثاقه كله . إذ لم يعد ضرورياً . وكل ماسيربطه بنا ، وبحياة جديدة ، هو قائم غير مرئيّ ، ولابد أن يتحسسه : شبكة الشعور ، أي هذه الغرفة ، الأوتار ـ فضولٌ ، حاجةٌ الى أن يستنبط ماينفعه من كل هذه الأشياء المحيطة به ، والطريقة التي تحدده بها الأشياء ، وتجلو استخدامات جسده هو ـ هذه هي الخيوط التي تمسك به الآن ، أو التي سيسافر ذهنه عبرها ليكتشف كم هو مرتبط بنا ، بالطاس ، ومغرفة الماء والسطل ، والإسفنجة التي أغسله بها ، والتي شرع منذ الآن يستعملها بنفسه ، والدواة ، والقلم والرِّق ، والكرة الملوّنة التي وضعتُها حيث لاتخطئها عينه ، والتي يجب أن يكون أدرك أنها له ، فأنا لم ألمسها البتة . أشعر بأن ذهنه ينطلق نحو هذه الأشياء . أشعر ، حتى في الظلام ، بالارتعاش الخفيّ للأوتار .

لسبب ما ، في هذه الساعات الطويلة من الجلوس الى الطفل ، أراقبه يتحرّك ببطء خارج نفسه ، محاولاً أن أتخيّل نفسي ، مكانه ، لأكشف كيف يجب عليّ أن أمضي به الى طفولته المفقودة ، وجدتُني أنزلق ، أكثر فأكثر ، الى طفولتي ذاتها ـ المفقودة أيضاً حتى الآن ، أو المرفوضة ، إلا أنها المنسية طويلاً بالتأكيد . أسقط في موضع بلا زمان في نفسي حيث يعود الماضي ، فجأةً ، بكل امتلائه ، أو باستمراريته . أنا هناك ثانيةً . أتّصل مع ذات جدّ مدهشة بحيث لا أكاد أصدق أنها أنا . وألامس تجربة أعرف أنها لي ، فقط لأن حيويتها لايمكن أن تكون إلا حيوية حياة مستردّة . فالخيال غير قادر على أن يقدم للذهن ، للحواس ، شيئاً حقيقياً بهذه الشدّة .

كل الناس ، بالطبع ، يخلّفون طفولتهم وراءهم ، هذا جزء من اكتشاف ذات جديدة في الرجولة . لكنني أعتقد أني فعلت أكثر من الآخرين . إذاً أن بساطة تلك السنوات المبكرة في «سالمو» لا تتناسب مع دوري الجديد ، باعتباري ابن مدينة ، وشاعر العاصمة المحنك ، ولاشك في أنني سأشعر فقط بالقلق ، وبنوع من الاشمئزاز ، لو حاولت المصالحة بين الاثنين . وللسبب نفسه ، وجدتُ من المؤلم أن أرى أبي ، الذي ظلّ مستاءً مني ـ حتى بعد شهرتي الأدبية التي كان من الممكن أن تعوّضه قليلاً عن إخفاقي في أن أكون رجل أعمال . تزوج ثانية ، وصارت له عائلة أخرى . وسهّلَ عليّ ، هذا أيضاً ، أن أظل بعيداً . لقد عشت ، بعد نهاية زواجي الثاني ، كما لو أنني بزغتُ إلى العالم كاملاً مع ديوان قصائدي الأول ، نمطاً جديداً بالتمام ، مخلوق آرائي الصريحة ، وبلا عائلة ورائي ، لاعشيرةٍ ، ولاوطن ، لاماضٍ من أي نوع .

والآن يعود إليّ كل شيء .

خاصة ، وبمشاعر غاية في الرقة ، كما لم أعرفْ منذ زمن طويل ، حتى أني لاأستطيع الآن استعادة آخر وقت غمرتني فيه ، أمسيات معينة من

طفولتي المبكّرة حين عُهِدَ بي وبأخي الى نسوة المنزل ، وخدم المزرعة ، يغسلننا ويُلبسننا للنوم ، سوية مع أطفالهن ، أولاداً وبنات ، الذين هم في مثل سنّنا ، والذين لا يزالون ، في حينه (باعتبارنا لم نتعلّم بعد أن نراهم عبيداً) لداتِنا في اللعب في ساحة المزرعة وغياض الزيتون والبساتين الأبعد .

في المطبخ الكبير ، المصفّح بالحجر ، وتحت الدعامات ، أحواضُ ماء دافىء وصابون ، ونحن الأطفال ، عشرة أو أكثر ، نطرطش معاً ، أو نجذف في برك على الأرضية ، صارخين جميعاً ، وهاربين ، كلّما برزت إحدى النسوة ، اللواتي يحملن على أذرعهن مناشف بيضاً زاهية كبيرة ، ويحاولن الإمساك بنا . إنه ، لي ، مشهد جمال ذهبي ونقاء . وأشعر بروحي مغسولة بمجرّد تفكيري فيه : الأجساد النظيفة العارية ، المناشف البيض ، والنسوة يضحكن ، ويمددن أذرعهن العارية المبللة .

في أيام الحصاد هذه ، كان يُسمح لنا بالنوم في الخارج ، في بيت المزرعة مع مربيتنا ، أما أمي المريضة ، التي تعاني صداعاً من حمّى القش ، فقد لزمت غرفتها ، ولن تظهر . أبي يخرج كل صباح مع الحاصدين ، وإن كان العمل بعيداً في الجانب الآخر من الوادي فإنه يبيت الليل هناك مع العمال .

كنا ننام مع الآخرين ، على حشيّات قش واسعة خلف المطبخ ، ونظل مستيقظين والنسوة يروين لنا حكايات عن أرواح الغابة ، وعن شياطين أقدم من آلهتنا الرومانية يعيشون في زوايا عجيبة من البيت والهُرْي ، ويجب استرضاؤهم بقطع من العجين (إذ يأتون طلباً له متنكرين في هيأة جرذ) ، أو بأعشاب لاتعرف كيف تجمعها من أعالي التلال إلا أكبر النساء سنّاً ، وأكثرهنّ حكمةً . إنه عالم امرأة لن أعرفه ثانية . عالم له رائحة الرغوة والعجين ، رائحة اللبن الخاثر ، والصوف الخام الذي أرىَ العجائز يمشطنه

على جدار شرفة في الشمس ، والحقول وراءهن خفقةُ أجنحة . في الصباح الباكر ، قبيل الضوء ، نخرج معاً في فريق ، نسوةً وأطفالاً ، الى مروج الماء ، لنجمع الفطر الكبير ذا اللون البرتقالي الأصفر . أنا أراقب النساء ، ذوات الأقدام الحافية ، يرفعن تنوراتهن في الندى بينما هنّ مقرفصات يبُلنَ ، عاليات الرؤوس تحت سلال القش . وفيما بعد ، في طريق العودة ، يبدون فضائحيات ، حين يتوقفن في الحقل الحصيد ، ليقدمن انحناءة ساخرة الى فزاعات بريابوس الملطخة بالقرمز ، والموضوعة في حقول القمح ، كي تطرد الطيور . وحين نعود ، ففي الساحة بيض ينبغي جمعه من تحت الدجاج وهي في القنّ الخشب ، وخنازير ينبغي إطعامها ، وحبوبٌ تنبغي تذريتها في الهواء بغربال . وفي برد المطبخ ، في المساء ، فطائر دُخن لتُخبز ، وتفرك فيما بعد بالقش ، كي تتشبّع بالعسل ، ثم تهبط العتمة . ويأتي الاستحمام .

أراقب ثانيةً . إحدى البنات وقد رفعت تنورتها عن ساقيهاالعاريتين ، وذراعاها تلتمعان مبللتين ، تقود أخي من ذَكَره ، وتطوف به حول الحوض مثل وزّة ، بينما النساء يرمين رؤوسهن الى وراء ، ويضحكن ، والأطفال يطرطشون الماء ويصفقون ، ويقذفون الرغوة في الهواء . وأعرف فجأة . بعد حوالي خمسين عاماً من الحدث ، أن تلك يجب أن تكون البنت التي ينام أبي معها . أراها تقود أخي ، الوارث الصغير لكل هذا العالم ، حول أرضية المطبخ المصوبنة ، بينما النسوة يبدين أسنانهن فاغرةً ، ويمسكن خواصرهنّ من الضحك .

إنه لمنظر في غاية البهجة ، وأنا في مركزه ، أفهم ربما لآخر مرة ، قليلاً من سره . إنه لعالمٌ آخر . كم غريبٌ أن أجد نفسي عائداً هناك للحظات عجيبة ، عارفاً أنني لم أفعل شيئاً مهما كان ليكشف لي آنذاك ، وأنني سلكتُ سبيلاً مختلفاً في عالم الرجل ، في المدينة ، والدولة ، مثل ماسلك أخي أيضاً سبيلاً مختلفاً ، الى الموت .

لكن الأغـرب في الأمـر أنـه ظل طوال هذا الـوقت ، هناك ، لم يُلمَس ، ولم يُسْتـعد ، ظلّ جديداً ، بهيـاً ، وحقيـقيـاً الى حد أني لاأزال أستـاف شميمه ، شميم النقاء الطريّ .

أفكر أيضاً ، في هذه الساعات الهادئة ، بموت أخي ، وقت الباريليا ، تماماً بعد عيد ميلادنا ، اللذين يقعان في اليوم نفسه .

كنا على الدوام قريبين من بعضنا ، مع أن مزاجينا مختلفان جداً ، فهو ذو ذهنية جادّة ، ومفعّم بإحساس عميق بالولاء لأشياء ، لأبي ، للمزرعة التي يعرف كل صُوىً الحدود فيها ، للعائلة المرتبطة وثيقاً بالبلد هنا ، أراضي العشيرة القديمة ، بليني ، وأنه لعميق التقوى ، بحيث أحترمه لتقواه وأحسده ، لكني ، وقد أخذتُ ، مبكراً ، دوري كشخص لعوبٍ ، كنت أفعل ماهو متوقعٌ منّي ، فأسخر من تقواه .

يرقد مريضاً أياماً ، وهو عاجز عن النطق . إنه في الثامنة عشرة فقط . أجلس معه في الغرفة المتصلة بالباحة ، حيث يرقد ، متصبب العرق ، على سرير نهاريّ ، وهو فريسة ارتجافات باردة ، فمُحرقة . أقرأ له قليلاً ، لكنه عاجزٌ عن المتابعة . أقرّبُ الماء من شفتيه ، وأحس بيدي ترتعش وهو يشرب . أنا أبكي ، وأخجل لبكائي ، عندما حلّ يوم الباريليا ، خرجت مثقل الفؤاد ، آن الغروب ، لأؤدي الواجب الذي هو واجبه ، أحس بعيون النساء عليّ ، وفي خطواتي عبر الحقول حيث النيران الصغيرة تشتعل في الظلام ، أعرفُ أني لو سمحت لنفسي ، حتى لحظةً واحدةً ، بأن أؤمن بالطقس الذي سوف أؤديه ، كما يفعل هو ، فإنني سأحلُ محله . وأجعله زائداً عن الحاجة ، مادمت سوف أطمئن الالهة (التي هي غير موجودة) على أني هناك ، لأحتلَ مكانه .

أرتقي ، جاهداً ، التلّ ، من خلال العشب الأصفر ، مُقوّياً عزيمتي ، مع أن هذا في الحق هو المهرجان الذي أحببته دائماً ، منذ ذهبت أول

مرة ، على كتفي أبي ، كي أرى النيران تُوقد ، وظلال الرجال تتقافز بين الذرة .

أنا أيضاً أعرف كل الصُوى لحدود أرضنا ، لكنها تعني لي شيئاً مختلفاً . إنها حيث يبتدىء العالم . وراءها روما ، وكل العالم المعروف الذي نحكمه نحن الرومانيين . خارجاً ، وراء الصوى ، يبدأ السرّ . ذهني يغامر خارجاً ، يلمس الجلاميد العتيقة المهترئة مجلبةً للحظ ، ثمّ يمضي في الظلام ، مالئاً المجهول بما يجب أن يُتخيّل ، مادام عصياً على الرؤية .

أما أخي ، فأعرف أن المزرعة ، وذهنه شيء واحد . الأحجار تتوهج عند حدّ ماهيّته : هذه الحقول التي نُقيت من حصبائها ومُهّدت مصاطب ، شجرات الزيتون العتيقة ذات الجذوع المنتهشة عميقاً بحيث تستطيع الاختباء فيها ، كما تفعل أرواح الغابات ، هذه الكروم ، والمناحل ، ومنحدرات الذرة المتدفقة بالنور تحت القمر . أسير خلال هذا كله ، وأنا أحسُ برؤوس العشب تمسح ساقيَ العاريتين ، وأبلغ الحقل حيث أبي ينتظر .

قد كان أدّى نوبة عمله ، وهو الآن ينشف جسمه بقماشة ، أقبّله . أتركُ أحد العبيد يُرخي قبائي . أرشف من دلو الحليب . آخذُ بيدي نبتة الفاصولياء ورماد العجل . يغمس أبي غصن غار في الماء ويرشّني به . إنه يبكي . صدري . حاجبي . تطرُفُ عيناي تحت رذاذ القطرات الصغيرة .

أكوام التبن يجري إيقادها على طريق الحقل كله ، من أجلي ، كي أقفز عليها ، وبينما أنا أعدو وأطير فوق الكومة الأولى ، شاعراً باندفاعة الهواء في رئتيَ ، شاعراً ببهجته ، بالوثوب ، بكوني تطهّرتُ ، وجمعتُ في شبكة الأشياء ، دخان القش ، الأصيل المعتّم ، طيور السُبَد المنطلقة نحو الحشرات بين الصنوبر ، تواثُب النبتات الفتية تحتي .

أعرف أن الأمر قد حدث ـ لقد خلّفتُ حبة إيمان في كل هذا المتبرعم في ذهني ، وقتلتُه . أخي ميت . أحس بالأمر ، حقيقة ، في أطرافي وما اعتراها من وهن وأنا أستدير الى البداية ، وفي انقطاع أنفاسي ، وأنا أميل الى الأمام ، يداي على مؤخرتي ، لاهثاً للهواء . أشعر به ، كالآثم ، في اتقاد جسدي بعد التمرين . لقد عدوتُ موت أخي . وعندما رشّوني ثانية بالغار ، وشرعتُ أعود عبر الحقول التي تعتم ، وأنا أحس بعرقي ينشف في النسيم ، فإن الأمر ، على قدر علمي ، قد حدث . أتوقفُ عند مدخل الساحة ، وأنصتُ الى أول العويل في البيت ، وأسمعها ، أصوات النساء .

جالساً عند حدود الحقل في الظلام ، أُرخي صندلي ، أُعفّر كتفيّ ورجليّ وشَعري بالتراب ، وأعرف بصورة مشوشة ما أنا مُقْدم عَلَيه . أنا أحاول أن أمسح التطهر الذي كان له ، أنا أدفع كفّارة لحظتي من الإيمان . هكذا تحدث هذه الأشياء ، عميقة في حيواتنا . نحن لانتحدّث عنها . نحن نخفيها حتى عن أنفسنا ، لكنها لا تتركنا . ومهما سخرنا من التراب الذي جئنا منه ، فإنه يغطينا ، نزحف عائدين إليه ، إلى ثخنه على أطرافنا ، إلى رمله . أما الآن فهو يصرخ في داخلي من جديد ، وأجد نفسي راغباً في أن أكلم أبي لو استطعت ، بعد غربة كل هذه السنين ، وأخبره أنني وجدت طريق عودتي الى تلك البلاد التي لن أراها ثانيةً ، وأنني في بلدي . لقد اعترفتُ أخيراً بديونه المستحقة عليّ . أنا أعرفُ أين وُلدتُ . ذلك يعود بذهني ، كما هو الأمر دائماً ، الى الطفل . مابلده ؟ مانسبه ؟ في أي لحظة جاء الى العالم ، وتحت أي علامة نجم ؟ مع أي كوكب صاعد ، وفي أي منزلة من منازل القمر ؟ وإن كان يجهل هذه الأشياء ، فهل باستطاعته أن يعرف من هو ، وماسيكون قَدره ؟

أم أن عدم المعرفة يجعله حراً ؟

هذه الأيام نخرج كل صباح ، الطفل وأنا ، لنتمرّن على دروسنا في الهواء الطلق ، حيث ليس بمقدور الولد ونسوة البيت سماعنا .

الولد يحمل الكرة الملوّنة التي صارت تعويذته ، وأول ما امتلك بيننا ، وهو لايتخلى عنها البتة . وفي المنام يتكوّر حولها . وحين يأكل يضعها في ثنية ركبته ، وهو يجلس متربعاً ، والطاسُ في حضنه ، ممسكاً أخيراً ، وبطريقة مضحكة ، الملعقة الخشبية التي علّمته استعمالها . وعندما نتمشى خارج البيت يحمل الكرة بيده اليسرى .

أتجنّب الأماكن التي كنّا قد نصادف فيها قوماً من القرية : نسوة يضربن ثيابهن على الحصا ، أو ينشرنها على شجيرة العلّيق ، ورجالاً يدفعون محاريث ثيرانهم الى الحقول الضيقة عند حدّ الحاجز الدفاعي حيث ينمو محصولنا الشحيح من الشوفان . أتجنّب أيضاً الغيضة الصغيرة الى الغرب ، المقدّسة لدى النسوة ، حيث يضحين في منازل للقمر معينة ، للآلهة هيكات ، أحشاء كلب .

هكذا تتبقّى فقط الأرض الناقعة باتّجاه النهر .

أخلعُ نعليّ (الطفل يمضي حافياً ، وعارياً إلا من رداء فضفاض ، سرعان مايخلعه بمجرد ابتعادنا عن مرآى القرية) ونتوغل في الشجْراء ، الى جزيرة معشوشبة يغطيها الشجر الخفيض والقليل من الشوفان البري ، وهناك ، كل صباح ، مع طيور المستنقعات غير المرئية حولنا ، زاعقةً صائحة ، أو متسلقة بصعوبة السماء النديّة ، ومع الضفادع وهي تنقّ . نبدأ .

أنا أعلّمُ الطفل الكلام .

وإنها لعملية عسيرة . كنت أكتشف منذ حين ، في رحلاتنا معاً ، أن باستطاعته محاكاة أي طير أو حيوان نصادفه ، وهو يبتهج إذ يُريني كيف يستطيع أن يصفر مثل الصقور الكبيرة التي نراها بين حين وآخر طافيةً عالياً تحت السحاب ، أو يطلق صوته : بِكْ ، بِكْ ، عند جذع شجرة مثل نقّاري

الخشب في طفولتي ، الأرواح المقدسة في ريفنا ريف «سالمو» . يقف متباعد القدمين ، يداه على ردفيه ، ورأسه مرتدُّ الى وراء ، مستقبلاً النور ، شفتاه تتقلّصان ، وملامحه تتوتّر لتغدو ملامح الطير الذي يحاكيه ، لتغدو منقاراً ، عُرفاً ، لُغداً ، كأنه يُطْلع من جسمه الصوت المطلق للمخلوق ، وبالتأكيد ، في دخوله الحياةَ السرية للغته ، يُصبح ، للحظةٍ ، المخلوق نفسه ، ولهذا يبدو لعينيّ أنه تحوّل في معجزة .

أحياناً يستخدم يديه آلةً للصوت المرتعش ، والمنساب ، نافخاً عبر قبضته ، ومفرقعاً أصابعه . في أحيان أخرى ، تنطلق الصرخة منه ، ببساطة ، عاليةً وصافيةً ، أو يأتي اللحن من أعماق حلقه ، غمغمةً حنجريةً ، أو يعطي جسمه ، فجأةً ، قعقعةً معدنيةً ، أجفلُ لقربها . كانَ أي طير من أنواع الطيور المختلفة ـ الحمام ، الغربان ، الخوّاص ، الطيور المهاجرة المحلّقة عالياً والتي لايعرف امرؤ في أي أفق كانت ـ تحيا في داخله ، وبمقدوره أن يسحبها بنَفَس من بين شفتيه ، كما لو كان لديه مدخل الى مكامنها في الأعشاب ، أو أنه كان معها في قاع النهر تغوص طيور الماء إثر فرائسها ، أو في أعالي الهواء حيث تعجز المخيّلة عن متابعتها ، وتعجز الأذن عن التقاط كيف تترجم صرخاتها عند حدود النجوم .

بعد أن لاحظتُ كيف يُصدر هذه الأصوات ، وأصوات الضفادع والزيزان ، والأرانب ، والزمجرة الخفيضة للذئاب ونباحها المخيف ، توصلت الى مفتاح ، أخيراً ، قد أتمكّن بواسطته من تعليمه الكلام .

كاملُ وجهه يلتوي بشكل مختلف عندما يحاكي صوت أي مخلوق . وإن كان يتكلّم ، دائماً ، مثل ضفدع أو صقر أو ذئب ، فإن عضلات حلقه وفكّه يجب أن تنمو لتناسب الصوت . إن بين المخلوقات والأصوات التي تصدرها علاقة حميمة ، هي من العمق ، بحيث أن المخلوقات وصوته ، واحد . ولذا ، ينبغي أن يتعلّم كيف يتواصل ، من خلال أجهزة نطقه هو . ولو استطعت أن

أبيّن له شكلها الطبيعي لأكتشف استعمالها . ولهذا السبب ، عندما أصدرُ الأصوات التي أريدُ أن يحاكيها ، والتي يجد صعوبةً بالغةً في سحبها الى شفتيه ، عمدتُ الى وضع أصابعه على حلقي كي يستطيع أن يسمع طنين صوتي هناك ، أضع أنامله على شفتي كي يستطيع أن يحسّ بشكلها ، وبانسياب النَفَس . وتدريجياً ، ومع صوت واحد كل حين ، نجد صوتاً بشرياً فيه . إنها لعبةٌ تبهجه . وهو متلهّف بصورة طفولية الى أن يريني أنه قادرٌ على محاكاتي ، كما يحاكي المخلوقات . بأنامله على شفتي ، وحاجبيه المتغضّنين ، منصتاً ، يكشف شكل شفتيه ، والصوت ممتازٌ تقريباً . يرفع يديه عن حلقي ، ويضعهما على حلقه ، ويضحك مباشرة حين يحسّ أخيراً بالطنين ذاته هناك ، ويسمع الصوت ، مندهشاً أول الأمر ، كأنه لم يعرف من أين جاء ، ثمّ مبتهجاً ، مُصدراً الصوت نفسه ، مراراً وتكراراً ، شاعراً بانتصاره ، مع صيحات صغيرة .

بدأت أفهمه . فهو في محاكاة الطيور ، ليس مثل مقلّدينا ، ينسخون شيئاً مبيّنين دقة آذانهم ، أو كفاءة أجهزتهم الصوتية . فهو ، باعتباره الطير ، يسمح له بالكلام . خارجاً منه . ولهذا ، حين يتعلّم الأصوات التي يصدرها البشر ، يبْرأ نفسَه بشراً .

الكلام جوهري ، لقد اهتديت منذ البداية الى الشيء الوحيد القادر على أن يبين له ، أي نوع هو . وبإطلاقه تلك الأصوات الطنانة يكتشف حنجرته . وبترنّمه من خلال منخريه يدرك أن له أنفاً ، وخلفه تجاويف يتردد فيها الصوت وهكذا ، عن الشفتين ، واللسان ، والأسنان . وهو إذ يستكمل المدى الكامل للأصوات ، فإنه يستكمل في رأسه صورة رأس مثبتاً ، ومعيداً التثبيت ، بأنامله على حنجرتي ، وفكّي ، وشفتيّ ، من أنه مخلوق مثلي ، وأنه إنسان .

لكن ، أيّ رأس ذلك الذي يبدعه خياله ؟

ما الذي يمكّنني ، في النهاية ، أن أوصله إلى تخيّله ، ومن ثمّ ، إلى أن يَكُونه ؟ ولو أني استكملت مختبر الأصوات كله ، فأي لغة سأعلّمه إياها ؟

في هذه الأثناء . نبدأ في مهارات يدوية بسيطة . أعلّمه رمي الكرة والإمساك بها . إنه سريع في هذا ، وفي كل المهارات الجسمية ، وسرعان ماشرع يدبّر لي حيلاً ، عارفاً أني لستُ لمّاح البصر ، ولا خفيف اليدين والقدمين ، مثله . أعلمّه رمي الرمح ، ونظم الخيط في الإبرة واستعمالها . وهو نفسه يحاول الإمساك بقلم والخربشة به . والأغرب من هذا كله أنه تعلّم الابتسام . ليس أن يضحك فقط من لامهاراتي وأنا أندفع وراء الكرة ، لكن أن يبتسم ، كما نفعل نحن ، بسبب حالة ما نفسية ، إضاءة مباغتة في روحه ، بلا موضوع والقضية . كما يتّخذ في جولاتنا دور المعلّم ، مبيّناً لي مسارب في العشب ، شارحاً بالإشارة أو بإيماء جسمه ، أو بمحاكاة الأصوات ، أي طير أو حيوان فعل تلك . أو يجد تحت جذع ملقى يرقانة أو خادرة ، ويشرح لي بيديه كيف ستكون فراشةً ، ممثلاً في نوع من الرقص ، تحوّلها .

كل هذا العالم حيّ لديه . إنه منطلق معرفته ، نوع من مكتبة أشكال لاحظها واختزنها في ذاكرته ، لغةٌ أخرى يعرف أن يفسر رموزها ويقرأها . وعيه هو الذي يقودني في جولاتنا . العالم يتخافق حولنا : إنه مناقع مائية ، أضغاث عشب ، جذوع مرمية ، أغصان . إنه مكتظ بآلاف الأشكال المتغيّرة التي تصرخ وتغني وتخشخش وتطنّ ، ويجب أن تكوّن ذهنه ، مثل القصائد التي حفظتُها منذ زمن ، مع أسماء آلاف الآلهة وخرافاتها ، وقواعد البلاغة ونظرياتها ، وحقائق العلم ، وحقائق التاريخ ، ونظريات الفلاسفة . الفرق أن العالم لديه عالمٌ مرئيّ بمقدوره السير فيه ، عالم له مناخاته وفصوله ، ودورة حيواته . إنه يُدخلني في وعيه . وهو ثمت تحت القدمين ، وفي كل ماحولي .

كيف أستطيع أن أُدخله في وعيي أنا ؟

توصّلت الى قرار . اللغة التي سأعلّم الطفل إياها ، هي لغة هؤلاء القوم الذين جئت لأكون بينهم ، وليسوا هم قومي . وباتّخاذي هذا القرار ، أعرفُ أني اتّخذت قراراً آخر : لن أعود الى روما أبداً .

لاشك في أنّي سأظل أكتب الى زوجتي ومحاميّ . بل سأواصل التوجه الى أوغسطس ، أستجديه الصفح عن جرائمي ، واستدعائي . ذلك لأن نصف حياتي أي المتوقع مني ، الدراما التي يجب أن أمثّلها حتى الاختتام . لكن في نصف حياتي الثاني ، أعرفُ أني لن أذهب الى روما ، حتى لو جاءت الرسالة . وفي الأسابيع الأخيرة ، صرت أدرك ، أكثر فأكثر ، أن هذا المكان هو المصير الحقيقي الذي كنت أنشده ، وأن حياتي هنا ، مهما كانت مؤلمة ، هي قدري الحقيقي الذي أمضيت وجودي كله في محاولة الإفلات منه . نحن بالكاد نتعرّف على البشارة ، حين تأتي ، معلنةً :

ها هي ذي الحياة التي حاولت أن تنبذ . ها هي ذي فرصتك الثانية . ها هو ذا المصير الذي حاولت إبعاده باختلاق مائة دور مزيف ، مائة هوية لنفسك مزيفة . قد يبدو للوهلة الأولى مثل الكارثة ، لكنّ الحقّ أنه حظٌ حسنٌ متنكر ، فالقَدرُ أيضاً يعرف كيف يتتبع زوغاناتك من خلال ألف شكل له . الآن سوف تصبح أخيراً الشخص الذي قصدت أن تكون .

هكذا أعترفُ صراحةً لنفسي ، بما عرفتهُ طويلاً في قلبي . أنا أنتسبُ الى هذا المكان الآن . لقد جعلتُه مكاني . أنا أدخلُ أبعاد نفسي .

كيف شرع هذا كله يحدث ؟ الأمر لغزٌ لي . قد يبدأ أولاً ، في أحلامنا . كائنٌ ما ، كنا أبعدناه عن ذهننا ، ولم نسمح لأفكاره بالوصول الى طرف لساننا ، يتحرّك ، ويبدأ بطريقته يعمل فينا . حياةٌ كاملةٌ مخبّأة ، تتدفق عائدةً الى الوعي . هكذا بدأت طفولتي تعود إليّ . ليس كما تذكّرتها سابقاً ، لكن بشكل أصفى ، كما كانت بالفعل ، وهذا هو السبب في أن

ماضيّ ، إذ أستعيده الآن ، يدهشني باستمرار . كأنه حدث لشخص سواي ، وكأنني سُلّمت ماضياً جديداً ، يؤدي بي إذا تتبعته ، إلى حاضرٍ أخرجُ فيه من جسمي القديم ، ذاتاً جديدةً أخرى .

الأمر هكذا أيضاً ، في دروسي مع الطفل . عندما أحاول أن أبيّن ما أعرف ، أتعثر فجأةً ، بما لم أعرف ، حتى تلك اللحظة . وفي بعض الأحيان يشتدّ الأمر عليّ . بحيث يكون ، هو ، المعلّم ، وأن كل مايجدُ في المناسبة يكون مستخرجاً ، ببطءٍ ، وألمٍ ، منّي .

نحن نتحرّك في اتّجاهين متعاكسين ، أنا والطفل ، وإن كنّا في الدرب نفسه . هو لم يمسك بعد بروحه الفردية من الكون حوله . إن نفسه لتقع خارجه ، طاقتها موزعة على الوحوش والطيور التي يشاركها حياتها ، بين الورق والماء والعشب والغيم والرعد ـ وهو في مكانه من وجودها ، فهي تمسك ، أي واحد منها ، بجُزىء من روحه . وليست لديه أي فكرة عن آخرية الأشياء .

أحاول أن أقذف نفسي في وعيه العالم ، في وعيه إياي ، لكني أفشل .

ذهني لايستطيع أن يحتويه . أحاول أن أتخيّل السماء بكل مجموعات كواكبها ، الكلب ، الدبّ ، التنين ، وهكذا ، امتداداً لنفسي ، وجزءاً من كينونتي الأبعد ، لكن معرفتي بأنها السماء ، وبأن النجوم ذات أسماء وتاريخ ، تمنع كينونتي السماء . يسقط المطر فأقول : هي تمطر : هي تمطر . ويقصف الرعد ، فأقول : هي ترعد . الطفل مغاير . أحاول أن أفكّر كما يجب أن يكون يفكّر : أنا أمطر ، أنا أرعدُ . فيباغتني الذعر ، كأني إذ أفقد ذاتي المنفصلة الفردية ، وأنفضُ آخرها من على طرف خنصري ، فلسوف أجدني ضائعاً في تضاعف الأشياء ، ولن أعود البتة الى ما كنت فيه .

لكني أعرف الآن أن هذا هو الطريق . بطيئاً أبدأ المَسْخَ الأخير . يجب أن أطرد نفسي القديمة ، وأدخل الكون فيّ . ستعود المخلوقات

زاحفة لا محولةً كالآلهة بالسحر ، لكن كما هي نفسها . ذات منقار ، ذات فراء ، ذات ناب ، ذات مخلب ، ذات حافر ، ذات خطم ، وسوف تقيم فينا ، مدخلةً حيواتها القديمة في وعينا . وبعدها ، النباتات ، كما هي أيضاً ، ثم نبدأ نستعيد في نفوسنا البحيرات ، الأنهار ، المحيطات ، الأرض ، سهولها ، جروفها الغابيّة بمواثب ثلجها . وقليلاً فقليلاً ، السماء . إن روح الأشياء سيهاجر عائداً إلينا . وسنكون كلاً .

آنذاك فقط سيكون لنا تصورٌ عن جسمنا الحقيقي ، باعتبارنا بشراً .

هكذا ، يوماً بعد يوم ، وأنا أعلّمُ الطفل كيف يضع الأصوات مع بعضها ، ويكون كلمات كالتي يستعملها البشر ، يعلمني هو أن أُصدر أصوات الطير والحيوان . في البداية ، كان الأمر لعبةً سمحت بها كي أداعبه . وعيي لذاتي ، وارتباك محاولاتي ، أضحكاه ، وقد أبهجني هذا الأمر ، البزوغ المباغت للطفل فيه ، كما أن فكرة قيامنا ، معاً ، باللعبة نفسها ، سهّلت عليّ إبقاءه داخل المهمة الطويلة البطيئة الصعبة التي وضعته فيها .

لكنه في الواقع ، المعلم الأجمل صبراً . أراني الطير الذي أحاول أن أحاكي صرخته . وجعلني أمسك به ، مرتعشاً بين يديّ ، أنا أعرفُ مقصده . عليّ أن أتخيّل نفسي في حياته . وبينما كان المخلوق الصغير الناعم يرسل دفئه فيّ ، أغلقت ذهني البشريّ ، وأنا أحاولُ أن أطلع منقاراً ، أحاولُ أن أثب خارج نفسي ، متحدياً ثقل لحمي ، وصلابة عظمي ، وأتخيلَ ماهو الانطلاق من العشب المبتلّ نحو الغيوم . خرج من حنجرتي تزمير غريبٌ ، صرخات طير صغير . شَبكَ الطفل يديه ، وأطلق الصوت نفسه ، مشجعاً إياي ، مقرّباً إياي منه ، من السلم الموسيقي البسيط ، كينونة الطير الفردية . والحقُ أن كل يوم يجعلني أقرب . مرةً ، في الأيام الأولى لعزلتي ، ظننتُ أني قد أتعلّم الكتابة بلغة العناكب . أما الآن ، والطفلُ دليلي ، فأنا في طريقي الى ذلك .

أعرفُ الآن ، أن اللغة الحقيقية ، هي ذلك الكلام الصامت الذي تواصلنا

به ، الطفلُ وأنا ، في الغابة ، حين كنت نائماً . إنها اللغة التي استعملتُها معه في طفولتي . وتجيئني ذكرى ، مختبئة ثمت ، لكن غير مسموعة بوضوح ، من أحاديثنا الرائعة ، تجيئني ثانيةً عند الطرف الأقصى للنوم ، لغة يكاد لساني يعيد اكتشافها ، وأعتقد أنها سوف تكشف لي أسرار الكون .

يبدأ الفصل يتغيّر . وحين نخرج هذه الأيام ، الى جزيرتنا في المستنقع ، يتعيّن عليّ أن أتدثّر اتقاء الريح ، التي ظلّت تهب من الشمال ، منذ شهر ، مع أن الطفل لايزال يمضي عارياً ، ويبدو محصّناً ضد الريح والبرد . الظلال تتجمّع من الشّجراء ، أبكر فأبكر ، كل يوم . الضوء رمادي . والطيور التي كانت رفقتنا هناك تبدأ الرحيل أسراباً . وكل يوم نراها أقل في الغسق ، ونحن عائدان عبر المشهد المائي المنبسط ، نسمع الإوزّ ، يضربُ جنوباً ، في أمواج عظيمة تشق سبيلها في السماء ، مالئةً الأعالي بصيحاتها . الوحوش زحفت إلى باطن الأرض لتنام . أحسست بإبطاء في الطفل أيضاً ، واعتقدتُ شيئاً ما ، بأن سرّ بقائه الشتوي ، سوف يُكتشف ، أخيراً . ولسوف أجده ذات صباح ، وقد نأى بنفسه في نوم أعمق ، كذلك النوم الذي استغرق الأيام الثلاثة الأولى ، بعد عثورنا عليه .

في هذه الأثناء تتحول القرية الى حصن . الرجال في مجموعات ، يرممون الحاجز الدفاعي . وآخر المحصول جُلبَ ، وخُزن . والحظائر التي كانت مفتوحة وفارغة ، طيلة الصيف ، تملأ بالعلف ، وفي بضعة أسابيع من الآن ، سوف تُدخَل اليها الماشية ، الثيران ، الأبقار ، الحمير ، الماعز ، لتوضع في زرائبها تحت الغرف التي تنام فيها ، وحين أهبط صباحاً ستكون أنفاسها الدافئة في الظلمة هناك ، ورائحة بولها ، وصوت تمرغها وعلفها . الساحة ترتفع فيها أكداس الخُثّ المربّعة ، والعربات موسوقة بأحمالها في الدروب بين الأكواخ ، والرجال ـ الأطفال أنصاف العراة في الغالب ـ يصيحون

ويحثّون الثيران كي تصعد التل عبر الوحل النقيع . نحن مهيأون للإغلاق على أنفسنا في الداخل ، ضد فرسان الشمال الذين سيظهرون ، ثانيةً ، بالتأكيد ، حين يتجمّد النهر ، وضد الذئاب . في كل واحد منا هذا الشعور بالانسحاب في داخل أنفسنا ، هذا الالتجاء الى دفء الجسم ونوره السرّي خارج البرد القادم ، هذا الانتقال الأبعد في ذات عميقة ينبغي ألا يمسّها القُربُ المفروض علينا في شهور الشتاء هذه ، حين تغلق البلدة أولاً ، ثم بيوتنا ، وباستثناء ، خطفات الواجب على الأسوار ، سنقضي الأيام والليالي على السواء ، محتشدين معاً ، فوق إحدى مدافيء الخُثّ ، في الغرفة المركزية الكبيرة ، التي تعلو الحظيرة . الشتاء هنا هو زمن الاستياءات بطيئة الاتقاد ، والشكوك ، والأوهام التي تزداد مع دخول الأيام ، أعمقَ في عتمة السنة ، ومع اقترابنا من بعضنا أكثر ، بسبب البرد ، وفي الوقت نفسه ، مع ابتعادنا أكثر .

أنا قلقٌ ، على الطفل بخاصة . إذ عشنا ، حتى الآن ، منفصلين عن الأسرة في البيت الخارجي ، منفصلين ، لكن ليس تماماً ، فالغرفة متّصلة بغرف نوم البيت الرئيسية ، لكننا قادرون ، في الأقل ، على الدخول والخروج كما نشاء ، وعلى رؤية الآخرين أقل ، بقدر ما يسمح به صِغَرُ مكاننا .

أدرك الآن ، كم اعتزلتُ في الأسابيع الأخيرة ، وكم جعلت من حياتي مع الطفل ، حدود عالمي المطْلقة . الآن أوشك هذا كله أن ينتهي ، فبيتي الخارجي الصغير سوف يسلم إلى العناكب . وبعد أسبوع من الثلج الأول ، يُدفن بالكامل . كيف سيتحمّل الطفل وضعنا ، محشورين في غرفة واحدة ؟ هل سيكون مقبولاً من النساء والولد ؟

أُفضي بهواجسي الى ريزاك الشيخ ، ونحن جالسون في ضوء الباحة الأخير ، نلعب بلوح خشب ومَرْميّات . هو يربح كالعادة ، محاولاً ، بفمه

المشدود الى أسفل ، وشاربيه اللذين يضربهما بإصبع قصير مكتنز ، ألا يبدو معجباً بنفسه ، مع أني أسوأ من أن أتحداه في اللعب . يحاول أن يجد مايحيّر حيث لايوجد ، يهزّ إصبعه عليّ ، ويؤدي نقلَتَهُ .

«لا لا ، ياصديقي ، يجب أن تثق بي . لن يزعجوا الولد » .

لكني غير مقتنع . وأميل الى الاعتقاد بأن ريزاك ، بالرغم من منصبه كشيخ للقرية ، وبالرغم من ممارسته الهادئة لسلطته ، فإنه يمتلك سيطرة على القرية أقل ممّا يريدني أن أعتقد ، وسيطرةً أقل ، أيضاً ، على البيت . إذ وراء امتياز الذكورة ، المؤسّس قانوناً ، تكمن القوة المظلمة للمرأة . العجوز أمه ، بخاصة ، لها هيمنة غريبة عليه . إنه يصيح بها ، ومرةً أو مرتين ، رأيته يضربها . لكن روحه تستحذي أمامها ، وأنا أشعر بذلك . الكائنات القوية في هذا العالم ، وريزاك يعرف ذلك ، وفي منطقة مظلمة من الإيمان ، هي شياطين أمه ، الأرواح القديمة التي تغمغم لها بخفوت ، والتي تضحي لها في ضوء القمر . وريزاك مذعور من سحر أمه ، كما هو مذعور من الشامان . كل مايتمتّع به ، قوة العضل وسلطة القانون .

تظل العجوز معادية ومرتابة . أراقب شفتيها تتحرّكان . وهي تغرف لنا العصيدة في طاسات ، وأتساءل إن كانت تكلم نفسها ، حسبُ ، أو تتمتم رُقىً . شهرتها ذائعة في القرية باعتبارها صانعة سحريّات ، ونادراً ما يمر يوم بدون أن تزورها امرأة لتستشيرها حول علامة فراولة ، أو شفة شرماء ، أو عسر ولادة ، بل لقد رأيت ، في مناسبة أو اثنتين ، شاباً يترصّد ، متململاً ، عند البوابة ، وهو يستعد لتسليم نفسه الى العالم الخطر لسحر النساء ، باحثاً بلا شك ، عن عقّار حب ، أو تعويذة ضد العفن الفطري ، أو بَغرِ حملانه المبكر . أحياناً نلمحها ، وقد خرجنا الى جزيرتنا ، تجمع الأعشاب . في أجمة الإفسنتين ، أو تقرأ رسائل خارج الأماكن المأهولة في حقل يشكّل فيه العشب دوائر ليست من فعل حيوان أو إنسان . أعرفُ أنها

تتجسّس عليّ . وأظنها تعتقد أني ساحرٌ خصمٌ ـ أهذا مايعنيه الشاعر لديها ؟ـ يستعمل الطفل ليصنع سحراً مختلفاً أكثر مضاءً . أما تمتماتها على عصيدتها فتعني وسوسة النعمة خارج الحبوب ، كي لاتجد أرواحُنا غذاءً فيها . لكنها شديدة الحذر من ابنها ، ولهذا لاتمارس السحر مباشرةً ، ضدنا .

حليفُها في هذا كله ، هو الولد ، أعرف أنه غيورٌ ، لأني استبدلتُ به ، تلميذاً لي ـ مع أني عرضت عليه ، مراراً ، العودة الى دروسنا . وهو يرفض الاقتراب مني ، ويدّعي جهاراً أنْ لانفع يرجى من اللغة اللاتينية أو الحساب البسيط الذي حاولت أن يتعلمه .

الشيخ يبدو في حالة يُرثى لها . فهو من ناحية ، يريد لحفيده أن يكتسب هذه المنجزات ، وهو من ناحية أخرى ، وبسبب كبريائه ، لا يسمح بأي إشارة الى عجزه . يتوسّل إليّ ، صامتاً ، وملامحه الجلدية مغضّنة في تعبير اعتذار تهريجي ، وكرامة مهانة مستسلمة ، ألا أشعر بالإهانة بسبب طيش الولد ، وأن أتعاطف ، إن استطعت ، مع صعوبته . يقول لـ«لولو» إنه جلف ، ويصفع أذنه ، لكن بلطف ، مع إيحاء بأنه حين اختار الجلافة ، ظلّ وفياً لقومه ، وبخاصة لجده ، غير المتمدّن ، لكن ، غير الجلف . الولد يتقبّل الصفعة ، كما قُصدَ بها ، مبتسماً ابتسامةً فاخرةً باتجاهي ، ويغادر تيّاهاً .

ريزاك يهز رأسه ، ويمطّ فمه ، ويريني راحتيه . العجوز ، وقد تمتعتْ بتبرير ممتاز ، تطلق صيحة انتصار ، وتمضي لتعدّ نقيع أعشاب بالماء المغليّ ، ثمّ تقدمه في تهذيب لئيم ، مبالغ ، حتى اضطر ريزاك الى القول إن الشاي لايمكن شربه ، والى التطويح بالطاسات ومحتوياتها في الساحة .

فقط ، أمُ الولد ، هي أكثر طيبة من أن تتحول ضدي بالكامل . لقد اعتبرتني دائماً ، أحمق نوعاً ما ، عليها أن تتساهل مع ضعفه الذكوري .

ويعود عطفُها المداعب الى أيامي الأولى هنا ، حين حاولتْ أن تعلّمني أسماء البذورَ التي كانت تفرزها ، وبما أنها تخاف العجوز ، فهي فرحة بحضوري ، لأني شوكةٌ في جنب الحيزبون ، هي التي جاءت بالماء الى نبتاتي الصغيرة ، وأعترفُ بأنه عملٌ تخريبيّ من جانب امرأة تعيش أيضاً في هذا البيت ، بفضل تسامحٍ قلقٍ ، وترى فيّ شبيهاً لها .

هي تنتسب الى قرية نائية ، كما أنها من رِسّ مختلف . سيطرتُها الحقيقية الوحيدة على هذا البيت ، وقد مات زوجها ، هي من خلال ابنها . والحق أن هذا كان سيحدث ، لو لم يكن ريزاك مشغوفاً بها . ولاشك في أن العجوز تعتبر هذا علامةً أخرى ضده ، واحدةً من تلك النواعم الصغيرة التي توهن بِنية الأشياء .

وقد يكون ضعفاً مماثلاً ذاك الذي جعل المرأة الشابة ، بالرغم من تحذيرات العجوز ، وخوفها هي ، تأتي أحياناً ، وتمد يدها لتلمس الطفل ، وهو منحنٍ على أحد مشاغله . بنعومة ، وللحظة فقط ، مدفوعةً بالفضول ، أو الرقة ، أو بهاجس ما للاتصال بأي قوة كامنة فيه مهما كانت ـ تلمس شعره ، وترجع الى الوراء ، لحظةً أحسَّ بيدها . لكن في تلك اللحظة ، مهما كانت خاطفة ، كانت النظرة على وجهيهما رائعة .

أريد أن أقول ، فقط ، إن حيواتنا هنا ، حتى في الانفصال ، موّارةٌ بالتوتر . والشتاء قد بدأ للتوّ .

طوال هذا اليوم ، كان ذلك السكون المتميّز في الهواء ، ذلك الضوء المريض الضارب الى الخضرة الذي يعد بالثلج . غيومٌ هائلةٌ متخثّرة فوق البحر . والحيوانات التي أُدخلت في الحيرة ، قلقة عند مَرابطها ، ترفس وتنفث ، أو تغيّر وجهتها ، سويةً . الطفل أيضاً كان راغباً في الانصراف الى مهماتنا . ومثل أي ولد في سنه ، يمكن أن يكون صعباً ، وهو يرصد الأعذار

باستمرار ـ جناح رفراف في المستنقع ، يرقة تزحف على جذع ـ كي يحوّل انتباهي . لكن الأمر مختلف اليوم . عضلاته كلها ظلّت متوتّرة ، يقظة ، كأنه سمع وقعَ خطوة في العشب وراءنا ، وهو عاجز عن أن يجعل ذهنه يستقر على الأشياء ، ومرة أو مرتين ينفجر مزاجه بصورة هيّنة ، ويبعد يدي ، نافد الصبر ، ويشمخ برأسه كأن اللغة التي أحاول تعليمه إياها كانت تغلق الطريق على لغة أخرى يجب أن تكون أذناه جد مرهفتين لالتقاطها .

هو في الغالب مدوزنٌ هكذا لتقلبات الجو . بمقدوره أن يستاف تبدلاً في الريح ، ساعات قبل أن يُرعشَ النفسُ الأول البحر ، أو يرفع عشب المستنقع . أراه يجلس ، فجأةً ، منتصباً في الباحة ، يرفع رأسه ، كما في حضور مباغت ، ويعرف أن في الخارج ستتمايل الأعشاب ، في الهبّة الباردة للريح الجديدة ، أو أن أولى خطفات البرق ستلعب في البعيد ، على خط السماء الشمالي .

لكن الثلج سقط اليوم ، وقد كنا نتوقعه منذ أسابيع ثلاثة تقريباً . الرجال في الحصن يقومون بالاستعدادات الأخيرة . على امتداد البطيحة الرمادية يختلج السكون ، كأنّ وتراً قد أُرِنّ . كل شيء يدندن حنوناً .

في وقت ما ، بين منتصف الليل والفجر ، أيقظني ضوء غريب في الغرفة ، زرقة غير طبيعية ، تنبض ، ليست البتة مثل ضوء القمر . الباب الى الكوخ مفتوح ، وموضع الطفل في الركن فارغ . نهضت سريعاً ، وداهمني الخوف .

لكنه لم يكن هرب . في كل انبهار الضوء الآتي من الثلج الذي كان يسقط ، لامحالة ، منذ ساعات ، فهو عميق ، يقف عارياً في الباحة (ينام عارياً ، حتى الآن ، بينما بقيّتنا تتدثّر بالفراء) ويبدو لي أنه لايزال نائماً ـ إن له نظرة الغشية البعيدة التي يتّسم بها السائرون في نومهم ، الذين حتى

لو مروا بك ، في ممر ، أو على سلّم ، يبدون بعيدين غير قابلين للمسّ ، كأنهم كانوا يتحكمون في عالم آخر ، حاضر ، في آن ، منفصل عن عالمنا ، لكن ليس بجدران ، إنه يقف منتصباً ساكناً ، وجهه مرفوع الى السماء الزرقاء زرقة ساطعة ، ليس زرقة الليل ولا النهار ، زرقة تغني ، إنها صافية جداً ، طاهرة جداً ، وهكذا لونها بالمطلق .

إنه يقف هكذا ، ساكناً ، في البرد ، والضوء يَصّاعد من الثلج ، قرابة ساعة . أنا أيضاً مرتعب من إيقاظه . حين بدأت أولى الرقائق تسقط ثانيةً فتح فمه لها ، وفرك وجهه ، وكتفه ، وصدره ، ثم رفع يديه ورأسه عالياً ، كي يسقط الضوء مباشرةً عليها .

أصدرُ صوتاً خفيضاً ، تحريك قدمين ، ربما ، فأنا أيضاً كنت أقف ساكناً في البرد ، خائفاً من أن أتحرك كي لاأربكه .

يستدير ويستيقظ فجأة . يبتسم . يطلق صيحة . ويشرع يتقافز على الثلج ، قاذفاً بحفنات منه الى الهواء . يبدو أنه لايشعر بالبرد . جسمه محافظٌ على لونه ، يداه وقدماه ليست متقلّصة . وعندما جاء مندفعاً إليّ مع قبضة من الثلج المسحوق ، شعرت بالدفء الذي يشعّه ، جسده يتّقد ، إنه فُرن . أراني الثلج . كأنه شيء من عالمه الخاص ذلك الذي لم أكن رأيته ، قط .

لكنّي حين أحاول إعادته الى الغرفة ، يقاوم . لم أعرفه يوماً عنيداً فجأة ، هكذا . أرتكبُ خطأ الإصرار . فيهجم عليّ . باصقاً . ممزّقاً قبائي ، ويركض إلى سور الحاجز الدفاعي ، يخمش اللوح الطري محاولاً تسلّقه . وحين أحاول أن أهدئه يدفعني عنه ، ويبدأ يعوي .

إنه العواء القديم من أيامه في الغابة . إنه يعوي ، خامشاً السور مثل حيوان ، باصقاً كلّما اقتربت ، مكشّراً عن أسنانه ، متوتر أظافر اليدين كالمخالب . خلفي ، النسوة ، وريزاك ينظر مذعوراً . والولد النعسان ، يفتح

عينيه واسعتين ، كأن إحدى حكايات الشيخ القديمة جاءت ، فجأة ، حيّةً في الباحة .

أنا على حافة الدمع . لاشيء يمكن عملُه . أنتظر ، مع ريزاك ، الطفلَ يُنهك نفسه . تهاوى أخيراً عند السور ، مدمّى الأظافر ، وأحسستُ بالشفقة عليه ، وبشعور بالذنب ، مفاجيء رهيب ، لكنني لا أستطيع أن ألمسه . كل هذه الأسابيع كنت أتبع خطتي للطفل ، ولم أفكّر لحظةً به ، إلا مخلوقاً طوع إرادتي ، هيأةً في حلمي . الآن ، وهو يركع في الثلج ، عاوياً ، ممزّقاً وجهه بأظافره ، أمتلكُ تصوراً لانفصاله المطلق الذي يُرهبني . ليس لدي أي فكرة عن الألم الذي يعانيه ، وأي إحساس عميق بالفقدان والحرمان تعبر عنه صرخاته . أخيراً ، حين هدأ العواء ، وانحسرَ في نحيب واهنٍ وطفوليّ ، حملناه الى حشيّته ، وتمددت لصقه ، والباب مغلق ، في الظلام ، حتى أنامه النحيب .

يبدو في الصباح ، أنه لايذكر شيئاً مما جرى في الليل . إنه يراقبني من الزاوية ، ألفُّ فراشي ، وأجمع لوازم كتبي ، موساي والطاس ، أتهيأ لمدة فصل ، بُغيةَ ترك هذا المكان ، أي مكاني ـ مكاننا ـ إلى الغرفة المشتركة فوق الحظيرة . أُطَمْئنه بالإشارات على أني لن أغادر بدونه ، وأشجعه على جمع حاجياته . كما هي : الرداء الخشن الذي يرفض ارتداءه ، كرته الملونة . لكنه يبدو عاجزاً عن الاستيقاظ الكامل . يراقبني وأنا أكنس الغرفة ، وأقول وداعاً للعناكب ، ثمّ أردُ الباب ورائي .

في نهاية الاسبوع سوف يدفن الثلج كوخنا ، وبعد ذلك ، حين يتجمد ، لن يكون بالمستطاع دخوله ، إلا من خلال السقف . وبطيئاً ، مع ممتلكاتنا كلها ، نصعد السلّم داخل الحظيرة ، الى الغرفة العليا .

4

حلمنا الشتوي يبدأ .

سنتي الخامسة في هذا المكان ، ومازلتُ لم آلفْه . يأتي يوم ويمضي آخر ، والضوء الرمادي هو نفسه على المستنقعات . تثلج . تتجمد . تثلج ثانيةً ، الريح تهبّ مستمرةً من السهوب . الهواء داخل غرفتنا كثيف بدخان الخُثّ الذي يحترق تحتنا . النوافذ تظل مغلقة معظم الوقت اتّقاء الريح ، ويمكن فتحها فقط في تلك الأيام الغريبة الساكنة ذات الصقيع المطلق حين تتحوّل السماء زرقاء جليدية ، والعالم كله يحبس أنفاسه ، ويلتمع أزرق ، ذهبياً ، أبيض ، كما لو أننا دخلنا ، فجأة ، في أرض جديدة . وإلا فإننا نتكوم هنا ، في نصف العتمة ، ننصت الى الريح تصفر في العشيّات ، ننفض كتلاً من الثلج في صوت ثقيل ، ننصت الى المصاريع الخشب تقرقع وبلورات الثلج تصلصل ، ونحمي أنفسنا من الهبّات التي تجد طريقها الى الداخل مثيرة دوامات صغيرة في الهواء المثقل بالدخان . أكتبُ في ضوء شمعة خفّاقة ، وعليَ أن أحميها بكفي المكوّرة كي لاتطفئها دفقةٌ مباغتة . أنام طويلاً ، ربّما بسبب ثقل الهواء ، أو بطء الدم في البرد الشديد ، وربما بسبب الضجر ، لكني أجدني أنوسُ برأسي في ساعات ما من اليوم ، وأبدوا دائماً نعسانَ مثقل

الرأس ، وأتساءل ، كم ساعة من اليوم أقضيها نصف نائم ، نصف حالم ؟ أثنتي عشرة ساعةً ؟ خمس عشرة ؟

الأيام المتماثلة ، تمر سريعةً ، وتمضي الى النسيان المطلق ، كالليالي . أسبوعٌ يمرّ ، ثلاثة أسابيع ، خمسة . فإن لم يحزّ المرء عددها على عصاه ، أو يدوّنه في رِقٍ ، فإنه لايكاد يعرف أنها جاءت وانصرفت .

أنا أقيس الأسابيع بعدد نوبات الحراسة التي أؤديها . كل ليلة من خمس أخرج أربع ساعات لأحرس السور ، أخطو صاعداً هابطاً على متراس خشب ، تماماً تحت القمة المدببة الأعمدة للحاجز الدفاعي ، مع عشرين رجلاً . في الليالي الصافية تكون الدنيا جميلة :

القمر مرتفع بين الغيوم ، وبطائحُ النهر مزرقّة ، يتخللها ظلٌ ثقيل ، الريف كله مفتوح الى مدى ماتراه العين ، على امتداد الطريق الى النهر . في مثل هذه الحراسات تستطيع أن ترى الذئاب تتحرك في جماعات على الثلج ، وبإمكانك سماع عوائها إذا كان السكون كافياً . أحياناً يأتي ذئب وحيدٌ عند السور تماماً ، ومرة أو مرتين تظهر مجموعة كاملة ، مكشّرة عن أنيابها ، مالئةً الهواء بعويلها ، حين تشمّ رائحة الحيوانات في مرابطها . والثيرانُ والحميرُ إذ تسمع عواءها ، تطلق بدورها خوارها ونهيقها المضطربين . لكننا في معظم الليالي لانقوم إلا بالخطو ، صاعدين وهابطين في الضباب المدوّم حولنا مثل بحر ، نتحرّك كالعميان ، ويدٌ واحدةٌ ممتدةٌ أمامنا ، على الممشى الضيق . هكذا تكون الساعات الأربع مثل نوع آخر من النوم . لاشيء تتركز عليه العين ، وكل صوت خامدٌ... إنه لنومٌ رمادي ، بلا أحلام ، يوجع الركبتين ، ويُضيّق الجمجمة ، وأعاني صعوبة كبرى في منع نفسي من الوقوع في نومٍ حقيقي ، وبالتالي من السقوط إثني عشر متراً في الوحل المتجمّد .

في هذه الأثناء ، سقط الطفل في حالة اللامبالاة ، فهو يجلس ساعات

لايفعل إلا التحديق في الظلام . كوعاه حول ركبتيه ، وحنكه هابطٌ على قبضتيه المضمومتين . لايزال يتسارع في لحظات . مثلِعاً رأسه لهبوب الريح ثانيةً بعد توقفٍ ، أو متشمّماً فجأةً حين تتحرك الغيوم الثلجية فوقنا ، وفي فترات السكون المضيء ، حين يمكن فتح النوافذ ، يغدو مجنوناً بالفرح ، يثب على عقبيه عند حافة النافذة ، مُصدراً أصوات أنَات صغيرة ، مثل جرو أُطلق من مِقْوده . لكنه ، في الفترات الطويلة ، حين نكون محتبسين ، بسبب الضباب أو الثلج ، أو قسوة الصقيع ، يغرق ثانيةً في كآبته القديمة ، التي لايقدر أن يخرجه منها شيءً . يأكل حين يوضع الطعام أمامه . لكنه لايهتم الآن بألعابنا الكلامية ، وأخشى أنه سوف ينسى معظم ماتعلّمناه . حين حاولت مرةً أن أعيد صلته بإطلاقي صيحةً كان علّمني إياها ، أصابته هيستريا شديدة . كل مافعلته محاولتي الخائبة من صيحة الطير أنها ذكّرته بمكان في المستنقع الذي لم نزره ، منذ ثلاثة أشهر أو أكثر ، وأنا أدرك ، متألماً ، أنه لايفهم ، ولايمكنه أن يفهم ، لماذا لم نعد نذهب الى هناك ، ولماذا انتهت ألعابنا . أيعتقد أني أعاقبه ؟

في ليلة صافية ، حين فتحنا النوافذ ، حاول أن ينقذف خارجاً ، لكن كان عليّ أن أتصارع معه ، عند حافة النافذة ، بينما هو يرفس ويطلق صرخات حيوانية حادّة ، أقنعتْ العجوز ثانيةً بأنه ليس طفلاً ، بل هو وحشٌ متنكرٌ شقّ طريقه بيننا .

العجوز تراقبه دائماً ، مرتعبةً كما أعتقد ، من أنه قد يمسك شيئاً ، وعاءً ما ، وبذلك يكتسب السيطرة على مستعملي الوعاء . والحقُ أنه في ساعاته المديدة من مجرّد الجلوس ، والتحديق أمامه ، لا يبدو ، بأي حال ، طفلاً طبيعياً ، وحين يهمهم في حلقه ، أو يئنّ ، أو يعوي قليلاً في ألمه ، أبدأ حتى أنا أتساءل عمّا إذا كان روحُ حيوان ما ، يعود بين حين وآخر ، زاحفاً فيه ، روحُ أسعفه هناك في غابة الشتاء . لقد ظل حياً ، آنذاك . فهل

يستطيع أن يظل حياً الآن ؟ أراقبهُ ينسحب أكثر ، كل يوم ، الى مسافة غير مرئية ، الى وجارٍ سرّيّ ، تهجع فيه روحه ، فلا يمكن أن تُستدعى .

أنظر اليه أحياناً ، فتتكون لديّ فكرة واضحة عمّا يفعل . إنه يرى نفسه في الحلم ، خارجاً ، في عراء الشتاء . وإني لأراه . برهةً قصيرةً ، يتحرّك على الثلج الناعم بين أشجار البتولا ، يعلك سيور اللحاء ، ويركع ليقتلع أشنةً . ألمس كتفه فلا يشعر بشيء . العينان السوداوان غائرتان في محجريهما ، تنظران عبري ، الى حقول الجليد الباهرة تحت الريح . وعندما يتسارع ، لتغير في الجو ، فإنما لتغير ، كما أرى ، في المشهد الذي يتحرك عبره ، في رأسه ، ولو أني فكّرت أننا قد نجده ثانيةً في الربيع ، إذاً لأطلقتُه . لكن هذا مستحيل . إذ لاعودة بعد أن جئتُ به بيننا . إنه يفقد ، فعلياً ، في دفء هذه الغرفة قدرته على مقاومة البرد . ومنذ أسابيع تدثّر ، مثلنا بغطاء جلديّ . سوف يتجمد هناك في الخارج . لقد انتزعتُ منه سرّه . مهما كان هذا السرّ . إنه الآن ضعيف المقاومة ، معرّضٌ مثلنا ، وهو يُظهر في ذلك ، على الأقل ـ حتى لو كانت العجوز لا تراه ـ إنه بشرٌ ، أخيراً .

وكبرهان على ماكنت أدركتُه للتوّ ، أصيبَ بالحمّى . هو جالسٌ كعادته ، ساحباً ركبتيه الى أعلى ، ومحدّقاً ، وفجأة رأيته ينطرح ، ويتمدّد مغشيّاً عليه ، لكنه استيقظ حين اقتربتُ لأغطيه ، وبدأ ، مباشرةً ، يرتجف . قطرات عرق كبيرة انبجستْ من جبينه ، حتى صار شعره يقطُر ، وجسمه كله يتفصّدُ عرقاً . وبين فترات الاحتراق ، يتجمّد . أعتقد أنه لم يعرف ، قطُ ، من قبل ، مايعني أن تبرد . كامل جسمه يُطبقُ على هذا الاحساس الجديد ، هذا الاكتشاف داخل نفسه عمّا يعنيه الشتاء ، وما معنى أن يكون ثلجٌ وجليد ، وشعور المرء بأنه يدخل ملكوتاً من البرد المطْلق ، ذلك العالم القطبي في تخوم الجسد . سحب ركبتيه الى أعلى ، منغلقاً على نفسه .

توترتْ كل عضلة في أطرافه وكتفيه ورقبته ، وأطبقت كفّاه ، وانطبق فكّاه . إنه يبدو مرتعباً ، وعندما بدأت الخضّات ، كان عليّ أن أمسك به ، مقحماً قبضة سكين بين أسنانه ، بينما هو يختضّ ، ويتصلّب ، ويدخل في سلسلة كاملة من التشنجات ، ثم يسقط منهكاً ، في نوم همود . العَرقُ ثانيةً . وحين رفعتُه بين ذراعيّ ، وحاولت إقحام بضع قطرات ماء بين شفتيه ، تذكرت أخي ، وأدركتُ من يعني لي هذا الطفل ، ومايعني لي أن أفقده .

العجوز تراقب من الطرف الآخر للغرفة . أعرف ماتفكّر فيه . هذه ليست حمّى عادية . الطفل يتصارع مع شيطانه ، الروح الحيواني الذي حماه هناك في الغابة ، والذي يُصارع الآن ليعود . وإذ أستنجدُ بها ، طالباً دواءً ما . بعض الأعشاب التي تجمعها وتصنع منها جرعات ، تهزُ رأسها ، وتدير إبهامها الى أسفل ، وهي تبصق . كان عليّ أن أمسك بالطفل ليل نهار . لو فكرتْ حتى للحظة ، بأن الروح قد تنصهر وتدخل جسم الطفل ثانيةً ، لقطعتْ عنقها . أنا أعرف ذلك .

لكن المرأة الشابة ، ذات الطفل ، والقلب الحنون ، لاتستطيع أن تتحمل رؤية الطفل يذوي ، ويعرق ، ويرتجف ، ويختضّ تحت الأغطية . تأتي لي ، سراً ، بطعام له ، وماءٍ نظيف .

أسمعُ العجوز تنازعها ، وأعرف ماذا تقول . ماذا لو تخلى الطفل عن الصراع ، ووجدنا أنفسنا حبيسين هنا مع الذئب الأبيض العملاق ، الذي هو عشيره ، والذي قد يفلح في أي لحظة ، في مَلء جسم الطفل ، ثم في الخروج منه ، وهي تعتقد أن الحمّى جزءٌ من التحوّل المؤلم . دم الطفل يغلي ويتجمد ، كأنه يتغيّر قطرةً قطرة . معدة الطفل تنكمش طلباً للّحم النيىء ، طعام الذئب اليومي . وأطرافُه تتوتر لتكون مخالب . وفكاه تطبقان على الأنياب التي تنمو . وماذا لو لم يكن ذئباً في النهاية ؟ بل وحش آخر ، أضخم وأرهب ممّا يمكن أن تتخيله حتى هي .

المـرأة الشـابـة تجبُن ، وأرى شـكّاً جديـداً قد بُذر في ذهنهـا . مـاذا لو صَعُبَ على الوحش قهر الطفل ، فـاختار جسم ابنهـا ، بديلاً ؟ سيكون الأمـر في غاية السـهولة . بينما نحن نائمـون جميعـاً ، وأجسـامنا فارغة في الظلام ، تنسلُ روح الطفل خارجةً ، وتقطع الغرفة ، وتدخل جسم ابنهـا ـ وهكذا يتمُ الأمر! ليومين كاملين ترفض المرأة الشابة الاقتراب منا . إنها تراقب الطفل ، تراقب ابنها ، تُبقي الولد بعيداً عن زاويتنا من الغرفة قدر المستطاع ، بينما تهمس العجوز ، وتخفق بيننا .

لكن في الليل البهيم ، حين تبلغ حمّى الطفل أزمتهـا ، وأُضطرُ الى طلب المعونة ، فالمـرأة الشـابة هي التي تتحـرّك في الظلام ، وتلتفت بعبـاءتهـا ، وتأتي بـالمـاء . أنا مـتـعبٌ جـداً ، ومنهك . وبعـد خـمـسـة أيام تقـريبـاً من المراقبة ، أبدو دائماً على حافة الدمع . يداي ترتعشان كثيراً بحيث لاأستطيع أن أرفع الطاس إلى شفتي الطفل .

تتناوله مني . تـركع . تـرفع رأس الولد ، تـاركـةً إياه يعبُّ البــرودة ، وعندما تعيد رأسه إلى مكانه من كومة الخِرَق التي كنت جعلتُهـا وسادةً ، تجلس مروّحةً عليه ، بينما أستريح أنا ، لحظةً ، مستنداً الى الحائط ، وأنام عندمـا أسـتـفيقُ ثانية ، أراها لاتزال ثـمت ، ووجـهـهـا فقط يتـبدى من طيّات العبـاءة . تجلس بانتصـاب كـامل . يدها تتحرك وراءً وأمامـاً لتعمل نسمـةً . تحني رأسهـا ، مشيرة إلى أن باستطاعتي النوم ثانيةً ، وعلى الفور أسقطُ من جديد في أعماق جسـمي .

في الضوء الصباحي الأول ، المتسلل عبر شـقوق النافذة ، أستـيقظُ لأجدها تمسك الطفل في إحدى نوباته . تبدو خائفة ، وأنا أعرفُ أن هذه هي اللحظة الحقيقية للأزمة . وأعرف أيضاً ماتخافه .

جسم الطفل يختضّ ، يرتخي ، أطرافه تطير ، فكّاه ينطبقان وينفتحان ، أصواتٌ حيـوانيـة غـريبـة تخرج منهـمـا . أسمعُ الآخرين يتحـركـون ، وأرى

العجوز تخرج من الظلام لتراقب ، والولد ينهض نعسان خلفها ، الطفل ينخر ، وتخرج زمجراتٌ خفيضة من حنجرته . لسانه يدور ، ويسيل اللعاب من زاوية فمه . شفتاه تتحركان .

وفجأةً ، وبكل وضوح بحيث سمعناها جميعاً ـ أنا ، والمرأة الشابة التي تشهق بغتةً ، وتدفعه عنها ، والعجوز التي تطلق عواءً ـ واضحةً ، من شفتيه ، وسط كل زمجرة الألم الحيواني وأنينه ، تجيء كلمة ، واحدة من الكلمات التي كنت أحاول تعليمه إياها كلّ هذه الأسابيع . لقد اكتشفها أخيراً في هذيانه . وقد صعدت الى سطح ذهنه . لقد اكتشف لسانه كيف يُصْدرها .

إنها كلمة عادية تماماً ، وليست ذات أهمية . كلمة شائعة من حياة هؤلاء الناس اليومية . لكن التأثير كان فورياً عليهم . ومن فرط فرحي باكتشافه إنسانيته أخيراً ، أفشلُ في معرفة ماأنذرهم . المرأة الشابة تنهار أرضاً ، وتبدأ تتراجع . العجوز تمدّ يداً لتأخذها ، واليد الأخرى خلفها ممسكة بالولد . التصقتا معاً والولد بينهما ، يحدق ، بينما أصعّدُ نظري من الأرضية الى جانب الطفل ، عاجزاً ، لحظتها ، عن الفهم .

إنه ماتوقعته العجوز . في أعماق حُمّاه ، وعند نقطة الأزمة ، اختطف الطفلُ روحاً أخرى . والدليل على هذا ، نطقةُ المفاجيء هكذا ، كلمةً في لغتهم .

الى الولد «لولو» تستديران الآن ، فهو الذي تكلم دون أن يعرف ، من فم الطفل . العجوز تبدأ ، فوراً ، تُغْوِلُ عليه ، شاتمةً المرأة الشابة التي هجرت ابنها ، لتعتني بمتطفلٍ ، وإذ اعتنت به حتى الأزمة ، أمكنت الشيطان ، من أن يسرق ، ولو للحظةً فقط ، روح ابنها . المرأة الشابة لاتنبس بكلمة ، خوفاً . تترنح على الأسل ، ممسكةً ببطنها ، تصدر غماغم من حلقها بلا كلمات ، كأنها توشك أن تمرض . الولد يشرع يئن ، والعجوز

تمزّق عنه ثيابه بحثاً في جسمه عن علامات ، إشارات ، موضع ربما دخل الشيطان منه . بعد ساعة ، حين عاد ريزاك من واجب الحراسة ، كانت الغرفة تغلي . المرأتان كلتاهما في هيستريا ، والولد ممددٌ على حشيّة ، يَغرَق مع الهجمة الأولى للحمّى ، بينما الطفل ، وقد انتهت أزمته أخيراً ، يتنفس هادئاً وينام .

ذهني في دوّامة من هذا كله .

في أي لحظة تالية قد يغمرني الفرح لما قدحدث . الطفل تكلّم أخيراً . في هذيانه اكتشف الكلام البشري . لقد اتّخذت الخطوة الأولى التي سوف تؤدي به ، لامحالة ، الى عالم البشر . لو أن هذا حدث قبل ستة أسابيع أو سبعة ، هناك في المستنقعات ، لتهللتُ فرحاً ، أنا الآن أعي ، فقط ، الخطر الذي وضع نفسه فيه . تلك الكلمة الأولى ، التي طلعت من أعماق نفسه في النوم ، بينما كان ذهنه ، وروحه ، بعيدين جداً في الثلج العميق لغابته ، تلك الكلمة قد تدمّره .

إنه لايحسّ بأي خطر . تنفّسه يأتي ناعماً بين شفتيه وهو ينام . لكن الخطر حقيقي ، وأنا لاأجرؤ على تركه ، ولاأسمح لنفسي ، أن أسقط ، حتى اللحظة ، في جوع جسمي أنا الى الراحة .

المرأتان في زاويتهما المقابلة ، مشغولتين الآن الى حد أنهما لاتعيراننا انتباهاً ، تُعْولان على جسم الولد ، الذي يمكن سماع أنينه ، خافتاً ، بين انقطاعات عوائهما . إنه في المراحل الأولى للمرض نفسه الذي أصاب الطفل . أنا أعرف الأعراض . كيف أُصيب بالمرض ؟

تتبادر الى ذهني نظرة الذعر على وجه الولد ، الرعب من حضور شيء مجهول ، بينما كانت يدا العجوز تمزقان ثيابه ، باحثتين في جسمه عن علامة انتهاك . هل أخذ المرضَ آنذاك ؟ مصاباً بخوفهما ، وجاعلاً إياه خوفه ؟

من يدري بأي وسائل غامضة يسير الجسم الى نهاياته ؟

قبل سنين ، وفي رحلاتي بآسيا الصغرى ، جئتُ إلى مدينةٍ حلّ بها الطاعون . صدمتني آنذاك ، العشوائية التي كان يتقدّم بها الوباء ، كيف يظهر في بيت ، مُفْنياً كل ساكنيه ، إلا طفلاً واحداً ظلّ معافى . ثمّ يقفز بيتين ليختار ضحية أخرى . وصرتُ أعتقدُ حينها ، بالفكرة القائلة : إن كان الطاعون نفسه ، يتحرك مثل سحابة فوق المدينة ، فلابدّ أيضاً من وجود ظل للطاعون يحيا في الجسم أو في الذهن . ولايندلع المرضُ إلا إذا التقى الإثنان ، وعرف أحدهما ، الآخر . وإلا كيف تفسّر أن شخصاً يصاب بالمرض ، والآخر ، الجالس الى جانبه ، أو النائم في الفراش نفسه ، لايصاب ؟ وماذا يمكن أن يكون ذلك الظل الذي ينام في الجسم ، سوى الخوف ؟

الرعبُ هو الصلة . يتفصّد الجسمُ عرقَ الخوف ، وفي رطوبة ذلك العَرق ، يبدأ الطاعون ينتشر ، كل قطرة تتحول وتغدو عَرقَ حمُى . وما يبدأ في الذهن يعمل الآن في الجسم . وهكذا ، مرةً ، رأيت المرض يُنقل في المسرح . كان ممثل شهير في أنطاكية يصوّر الألم الأخير للبطل الذي أصابته حمّى مميتة بعد أن أهان الآلهة ، وقد أدى الممثل دوره بمهارة فائقة ، مؤثراً تأثيراً شديداً في أذهان الجمهور ، باستعادته الممتازة ، الاحتراق ، والإختناق ، وبُرَحاء المرض ، حتى أن نفراً من المشاهدين ، أصيبوا بالمرض نفسه ، بسبب رعبهم وإثمهم ، وسقطوا عن مقاعدهم متفصّدين عرقاً ، فتعيّن حملهم الى خارج المسرح . لقد انطبع ماشاهدوه ، في أذهانهم ، بحيث أن مجرد التظاهر بالمرض ، في جسم الممثل ، تواصل مع أجسامهم ، وصار حقيقة . إن روح الممثل ، في تخيُلها المرض ، أثرت بقوة في أرواحهم ، بحيث سمحت للمرض بالدخول ، ففاضت سمومه ، فوراً ، في عروقهم .

أهكذا تنتشر مثل هذه الحميات ؟ أهكذا كانت عدوى الولد ؟ لامن خلال رغبة الطفل في تحرير نفسه ودفع المرض عنه ، وإنّما من خلال الخوف ، محمولاً في ذهن أمه ، ومطبوعاً في ذهنه هو بسبب ذعر العجوز المفاجيء ، ومعبّراً عن نفسه ، فوراً ، عَرَقاً ، وناراً ، ونوبات يعانيها الآن . إن نقطة العدوى كانت لحظة مدّت العجوز يدها لتلمس المرأة الشابة حين أجفلتْ مرتعبة من كلام الطفل ، واستدارت صارخةً نحو الطفل النعسان خلفها . في هذه الصدمة الأولى لصرخة العجوز ، أخذَ المرض ، وانفتح جسمه ليتلقّاه من يديها ، عبر يدي الأم ، من الطفل ، خارجاً من أذهانهم داخلاً في ذهنه . مع أن العجوز تعتقد ، وأوحت بذلك الى المرأة الشابة ، أن روح الطفل فعلتْ هذا كله ، خبثاً . أمُّ الولد هي التي نقلت المرض ، من خلال ضعفها وشفقتها . وهي عندما تحوّلت للعناية بالطفل أسلمت حياة ابنها إليه . وسمحت لروح الموت بالمرور بينهما .

وهكذا ، ساعة بعد ساعة ، يغرق الولد «لولو» أعمق في هذيان الحمّى ، صارخاً ، متمتماً ، مطلقاً من بين شفتيه صرخات الأنين والزمجرة الحيوانية التي كان الطفل ملأ بها الغرفة طيلة الأسبوع الفائت ، متصارعاً ، كما تعتقد المرأتان ، مع ذلك الروح الحيواني نفسه ، الذي سوف يستعمله ثانيةً ليدخل بيننا .

في هذه الأثناء كان الطفل ، وهو لايدري بهذا كله ، يزداد قوة . اليوم جلس أضعف من أن يسند نفسه ، لكنه قوي بما يكفي لأن يأكل . إنه يبتسم . حتى ريزاك يراقب تماثل الطفل الى الشفاء بعينين ضيّقتين ، وإني لأرى فيه خوفاً حقيقياً مما يمكن أن يكون الطفل سبّبه لهم ، مع أنه مثل المرأتين ، أشد قلقاً وتمزّقاً بالحزن إزاء معاناة حفيده ، من أن يفعل أكثر من التحديث والحيرة . مشاعره متعلقة تماماً بالشخص الشاحب الصغير الممدّد على الأسل ، وهو يعصر يده في نوبة بعد نوبة بينما الحمّى تنتقل في مراحلها بين النار والجليد .

فقط حين تأخذ منه الحمّى مأخذها تتحوّل صدمة الشيخ إلى استياء منّا وغضب . لخمسة أيام وليالٍ يجلس على الأرض بجانب الطفل ، منحني الكتفين ، متجهّم الوجه ، يبتلّ خدّاه بالدموع حين يئنّ الولد . أعرف مايشعر به . لكني لا أستطيع أن أُبدي له إشارة . أُحاول أن أجعل نفسي غير مرئيّ هنا ، وآخذ الطفل معي . المرأة الشابة ، أمُّ الولد ، هي أشد ذهولاً الآن ، وانصعاقاً بالحزن والشعور بالذنب ، من أن تفعل أكثر من الجلوس مغطّاة الرأس ، محدّقةً في الولد ، متمنّيةً له أن يعود الى الحياة . العجوز هي التي تهتمّ به . أعرف ، لو أن الطفل مات ، فسوف تنفجر كل هذه المشاعر المحيطة بنا ، في عمل عنيف ولن أستطيع آنذاك أن أفعل أي شيء حفاظاً على الطفل ، وعليّ أنا .

أنتظرُ ، نصف نائم ، اللحظة حين ستأتي ـ صرخة الغضب الشنيعة التي سوف تخترق الشيخ وتجعله يهجم علينا ، والعنفُ الذي يخضّ الولد الآن ، سيندفع هائجاً من خلال جسم الشيخ ليوجه ضربته الينا ، الى الطفل أولاً ، ثمّ إليّ ، لو حاولتُ حمايته .

لكن ، وفي مثل المعجزة ، تمرّ الليلة الخامسة ، وينجو الولد . ومع الصباح سمعتُ العجوز تُطلق أصوات قَرَقِها الصغيرة ، مكلّمة الولد ، كما لو كان يستطيع السمع أخيراً ، وموقظةً ريزاك الذي كان شبه نائم ، متهدّل الرأس ، مع أنه في الجلوس يظلّ منتصب الجسم . أمُّ الولد تقف ، بطيئاً ، على قدميها ، ناهضةً من موضعها عند الجدار ، حيث كانت منبوذةً لخمسة أيام . يشبّك ريزاك يديه ويطلق هتافات ارتياح عالية ، ساخراً من الولد ، ربّما لما سبّبه لهم من قلق شديد ، ويأتي على الفور ، الى وسط الغرفة ، مبتسماً ابتسامةً عريضة وملوّحاً بيده لي . لقد ذهب كل غضبه واستيائه . يقطع الغرفة . إنه أحد تلك الأيام البيض الصافية . حين يكون الريف كله مرئياً ، يلتمع ، أبيض ، تحت سماء زرقاء . كان الاندفاع المفاجىء للهواء البارد في الغرفة رائعاً .

ريزاك يتمطى ، يطلق هتافاً ثانياً ، ويمد ذراعيه واسعتين الى السماء ، ثم يعود مترنحاً الى الغرفة ، يتمدّد على كومة من الأسل هي فراشه ، ثم يسقط ، فوراً ، في أول نوم حقيقيّ عرفه منذ اسبوع . أمُ الولد تنام أيضاً ، متمدّدة على الأرض بجانبه . العجوز فقط ، التي لاتتعب ، تظل تنعق على الولد ، مقدّمةً له فُتاتاً من صحن ، ضاحكةً مع نفسها بين وقت وآخر ، بل منادية إياي ، مرةً أو اثنتين بالرغم من أنني لاأعرف ماتقول في دَرَدِها .

لقد مضى الخطر . تخطّيناه . فجأةً تذكرتُ كم أنا متعبٌ . غمرتني موجه كبرى ، وبدون أن أزحف حتى ثلاثة أقدام الى فراش الأسَل ، تركت نفسي أغرق ثانيةً تحت فيض الضوء الآتي من النافذة ، وأنام .

نحن الآن عبرنا الأسوأ . الانقلاب الشتوي جاء منذ وقت طويل ومضى . وقد دخل ظلام أحلك وقت في السنة ، وبلغ نهايته ، والأرض تميل بعيداً نحو النور من جديد ، وأحس ُ بمعنوياتي ترتفع مع تطاول الأيام . والآن ، تفتح فترات الجو المنير الهادىء ، الريف كله أمام عيوننا ، البحر يلتمع ، وأوائل الطيور تعود . وفي الليالي الهادئة ، يمكن سماع جليد النهر ، وهو ينطحن في الظلام .

بل إننا نستطيع أخيراً الشروع في التنقّل حول البيت . أهبطُ مع الطفل الى الحظيرة ، ونجلس هناك مع الحيوانات ، نسمعها تجأر وتنخر في نصف العتمة ، متحرّكةً ، مجترةً ، متبرزةً أكوام روثها متصاعد البخار ، الذي يعطي المكان رائحة حرّيفة ، تبدو أفضل من الهواء العطن في الغرفة العليا ، ونحسُ بدفئها وهي تلتمُ مع بعضها عند مرابطها . بدأت الحيوانات تفقد هدوءها ، مشتاقةً الربيع . بعد اسبوعين أو ثلاثة من الآن ، حين ينزاح الجليد ، سوف تؤخذ ثانيةً الى الحقول . كل يوم يشتغل الرجال ، كاسرين ممرّات في الجليد ، جارفين بعيداً أقدام الثلج التي تغلق الدروب الضيقة بين الأكواخ ، منظفين الباحات كي يمكن الوصول الى البيوت الخارجية من جديد .

حتى بيتي الصغير بدأ يظهر فوق مستوى الثلج . وسرعان ما سنكون قادرين على الانتقال عائدين الى هناك ، أنا والطفل ، ولسوف تستأنف حياتنا القديمة . ثم ، بعد شهر أو نحوه ، سوف نعود الى جزيرتنا في المستنقع ، الى الطيور والفراشات ويُسروعات الربيع ، والى الحروف الساكنة ، وحروف العلة ، التي كاد الطفل ينسى معظمها ، إذ مرّ زمنٌ طويلٌ على مراجعاتنا لها ، مع أني وقد نطق بكلمة أخيراً ، أعرفُ أن بالإمكان العثور عليها هناك في قاع ذهنه ، أعرفُ أنه في جزء سرّي من كينونته ، أعمق حتى من النوم ، بدأ يتكلم مع نفسه ، وبالتالي سوف يتكلّم معي ، يوماً ما .

نحن ننزل كل يوم الى الحظيرة ، لأن الغرفة نفسها لم تعد محتملة . نحن هناك للعذاب فقط . لأن ريزاك مسؤول عني ، حسبُ .

سلطته على البيت اهتزّت عميقاً ، بسبب أحداث الأسابيع الأخيرة . فالعجوز هي التي تتحكّم ، إذ أن سحرها هو الذي أنقذ الولد ـ هذا ماتخبره ـ وأن ثقته الحمقاء ، وشفقة المرأة الشابة ، هما اللتان عرّضتاهم جميعاً للخراب . والولد هو حفيده الوحيد . وريزاك يراقبه الآن بشعور متسارع بأنّ الولد عرضةٌ للزوال . وصار يدرك أيضاً أن قوة ذراعيه لاتستطيع أن تفعل الكثير ، مثل ما لم تستطع ، في لحظة الأزمة . كأنما وجدت العجوز سبيلها أخيراً الى تسميم روحه ، واسترداد قوته الرجولية التي وهبته إياها يوماً ، والتي كانت طوال هذه السنين كلها مصدر تفوّقه عليها . وهناك لحظات يبدو فيها طفلاً بين يديها . وإن المرء ليميّزُ في وجه العجوز عداءً حقيقياً لهذا الرجل ذي الستين الذي كان سيّدها طويلاً ، والذي كان في ما مضى رضيعاً ، وتحت سيطرتها تماماً . ويختلط مع العداء شعورٌ جديد بالإنتصار . البيت ممتلىء بتوهّج سحرها ، رائحة أعشابها ، جرعاتها وصلواتها اللامنتهية ذات العبارات المرتعشة .

عندما يكتمل البدر سوف تقدم أضحيةً في غيضة النساء خارج القرية ، مقدّمةً الشكر ، لحياة الولد . يخرج ريزاك وحده ليأتي بالضحية ، جرو برّي ، سوف تحرق أحشاؤه على مذبح من الخُثّ ، وتقدّم الى هيكات الثلاثية . توسّل الولدُ كي يذهب معه ، لكنه رفض... سوف يؤخذ الجرو من بين الكلاب البرية ، الهجينة ـ الذئبية ، التي تجوس في مجموعات ، خلال منخفض الشجيرات بظاهر القرية ، والتي تطعَمُ ، باعتبارها مقدسةً أيضاً ، الفُتاتَ ، أحياناً ، من المتاريس ، إنها مخلوقات هزيلة لونها رماديّ ـ أسود ، وكلها أضلاع ، وتتقاتل ، منقضّةً في أكوامٍ على قطع اللحم والشحم الزنخ ، ثمّ تنسلّ الى الدغل .

يعود ريزاك بالجرو في سلّة قصب صغيرة . ولعشرة أيام ، حتى اكتمال البدر ، ظل يعوي في زاوية الغرفة ، مصدرَ عذاب حقيقي للطفل . أستيقظُ في الظلام ، لأسمع بكاءً ناعماً ظننته بكاء الطفل نفسه ، لكني أجده منحنياً على السلة في الظلام ، مجيباً صرخات الحيوان بأنّات صغيرة حادة . وقد واجهتُ صعوبة كبرى في إعادته الى حشيّته . وطوال الوقت كنت أحسّ بالعجوز ، منتصبة المجلس في زاويتها ، وأتخيّل ابتسامتها الخفيّة .

هل يعرف الطفل ، المقصود ؟ وهل جاءته العجوز بالمخلوق الصغير إلى هنا ، عمداً ، ومبكراً ، فقط لتكوّن هذا الاتّصال بين الاثنين : الطفل وضحيتها الحيوانية ؟ هل الطقس الذي تتهيأ له ، رقيةٌ ضد الطفل ، أكثر مما هو تقديم شكر لحياة الولد ؟

مع اقتراب الموعد ، يغدو الطفل مهتاجاً أكثر فأكثر ، حتى لقد خشيتُ أن يسقط ثانية في حمّاه . إن نأمة من الجرو تجعله يرتجف الآن ، فإن منعتُه الذهاب الى السلّة أجابَ المخلوقَ من بعيد ، مُصْدراً كل سلسلة أصوات الأنين ، التي يطلقها الجرو ، فتضحك العجوز رأساً ، ضحكتها التي تشبه النعيق . هل يحسّ الحيوان بما سيحدث ؟ هل أوصلَ هذا الى الطفل ؟ أو أن

الطفل منزعجٌ ولسبب بسيط هو وجود حضور في الغرفة لروح صغير ، شيء هو غيرحضورنا البشري ؟ أو أنه أحسّ في كربة الحيوان فقدانه هو حرّيته ؟ أو أنه التألق المتزايد للقمر ليلةً بعد ليلة ؟ منذ أسبوع والجوُ صافٍ ، ونحن ننام تاركين النوافذ مفتوحة ، وضوء القمر الذي يدخل الغرفة يمنح أشياءها المألوفة زرقةً شبحيةً ، ضوء القمر إذ يضرب الثلج ، مكوّناً ظلالاً كثيفةً تكاد تُلمَسُ باليد .

أخيراً حلّت الليلة .

المرأتان تخرجان بعد طلوع القمر مباشرة ، مصطحبتين الولد ، وريزاك يحمل السلة الى بوابة الباحة ، ثمّ يتسلّق السلّم عائداً ، ويقترح عليّ إحدى لعباتنا باللوح والمرميّات .

من النافذة ، أراقب موكب العجوز ، وهو يمضي في الدرب الضيق ، وتنضمّ إليه أخريات في مسيرته . نساء القرية ، كلهن ، سوف يجتمعن أخيراً في الغيضة ولايُسمح لأي رجل برؤية طقوسهن . إنها لشعائرُ القمر ، تعود إلى عالم سلطة المرأة ، وعبادة المرأة ، وهي أقدم وأكثر غموضاً من عالم الرجال .

يبدو ريزاك ، ونحن نلعب ، غير مرتاح . وقد كسبت اللعب . المرأتان تعودان صامتتين ، ولاتزالان ملتفتين بقوتهما التي منحها القمر ، مهما كانت ، هذه القوة التي تتسلّط شهرياً على دفق جسميهما ، تكبر ، وتنحسر ، وتترعرع على العتمة ، محوّلةً كل هذه الأشياء التي نعرفها في ضوء النهار ، بنوره الأكثر نعومةً وغموضاً . ريزاك ينسحب إلى حشيّته ، على الفور تقريباً ، وبدون كلام . صمتهما يضطهده . أمّا الطفل الذي لم يقم بأي حركة منذ أُخذَ الجرو من الغرفة ، فهو يجلس في زاويته ، منحنياً ، غارقاً في إحدى انجذابات جسمه ، ويرفض أن ينام . أحسُ طوال الليل بغربة تخيّم علينا ، بتغيّر قد يكون سببه البدر ، أو أنه منبعث من يقظة الطفل الحالمة ،

أو من العجوز ، فقد ظلّت طوال الليل جالسةً ، متّسعة العينين ، لاترى ، والبدر يسقط عليها ، مغلغلاً قوّته عميقةً فيها ، تُطلق بين حين وآخر تنهّدات كبيرة ، كأن مخلوقاً أقوى كان يتنفّس من خلالها بانتظام .

في الصباح ، كان في الغرفة نفَسٌ أكثر غرابةً وحدّةً .

لقد أصيب ريزاك في الليلة الفائتة بمرض ما ، ليس كالمرض الذي أصاب الطفلين . جسمه ، متلوّياً ، وجائشاً في نوبات عنيفة ، يتعذّب ، وينشف ، ويفيض . وإذ تفحصه العجوز ترى هناك تلك العلامة ذاتها التي توقعتْ أن تجدها ، نصف دائرة من آثار أسنان صغيرة على رسغه ، مندملة الآن تقريباً ـ إنه الجرح الذي دخل منه الوحش . تُطلق العجوز صرخة حادةً ، وترمي يديها في الهواء ، وتبدأ مباشرةً ، العويل على الميت .

هذا ماكانت طقوسها ، البارحة ، تريد أن تتفاداه . ولقد أخفقت الطقوس ، وبعد هذا كله ، لم يكن الولد هو المهدّد ، لكنه الشيخ . كان مرض الطفل تحويل انتباه . الآن ، تكتشف ، حقاً ، أن الطفل هو الذي أنزل شرّه بهم . فقد تركه الروح الحيواني أخيراً ، ودخل في الشيخ الذي تخرج من شفتيه نقطٌ بيضٌ كالزبد الذي يُطلقه حصانٌ أرهقه الركوب الشديد . الهدير والزئير الحيوانيان اللذان ينفجران منه ، يكاد الشعر يقف منهما ، بينما هو يذوي ساعة بعد ساعة ، وثمة بقبقة في حلقة ، ودمدمة لم أسمعها من قبل ، وتبدو بعيدةً قروناً عن الكلام البشري . وبين هذه الفترات من السُعار ، يتصلّب ، أطرافُه كلها تتوتّر ضد مايخرج من خلاله ، الوحش الذي يولد فيه ، طالباً أطرافه الأربعة المُشعرّة ، وخَطمه ذا الأنياب ، وفكّيه المطبقين على اللحم النيىء للأشياء . النهَاية محتومة ، وواضحة هكذا منذ اللحظة الأولى لظهور الشرّ . حتى أنا أرى ذلك . الأمر مثل كابوس ، كأننا انجرفنا جميعاً ، وفجأة ، في دراما جسمه ، في عمليتها الرهيبة ، نقل طاقته البشرية الى شكل حيواني . للكابوس قوة دفعه الذاتية ، وقد أخذنا معه

كأننا كنّا مشاركين فجأةً في الحلم نفسه ، مستيقظين معاً في نومنا لنكتشف أن الغرفة أمست قفصاً ، وأن الهواء ذاته كان عنصراً حيوانياً نتقاسمُ نفَسه ، تتانته هي تتانتنا ، ودمامته هي محاولاتنا الخانقة لأن نصرخ ونصدم أنفسنا ناهضين .

استُدعي الشامان ، لكنه أيضاً أقرّ بهزيمته . نظرة واحدة الى الوجه الرمادي الذئبي للشيخ ويجفُل مرتعباً يهزّ رأسه ، ويهرب مع سحره قبل أن تنتقل اليه هو أيضاً ، العدوى .

جرى هذا كله ، مفاجئاً ، وكاملاً ، الى حد أننا بقينا مذهولين ، عاجزين عن إعادة أنفسنا الى الواقع . ولخمسة أيام يستمر الصخب . روح الشيخ تُصارع وتتلوّى ، كأن قوّته لاتُنهك . وعندما تحاول المرأة الشابة أن تبلل شفتيه بالماء ، تصدر منه اختناقةٌ رهيبة . تصرخ العجوز إنه الوحش يحاول قول اسمه ـ الوحش المجهول الذي أرضع الطفل كل هذه السنين ، وتركه الآن ، يولد من جديد ، في الشيخ .

يهدأ الشيخ أخيراً ، في اليوم الخامس . السكون المباغت بعد ساعات السُعار تلك ، سكونٌ مرعبٌ . نحن نحبس أنفاسنا .

إنه ليس ميتاً . نحن نعرف ذلك من ارتفاع أضلاعه وانخفاضها ، لكن الوحش الآن ، في لعبة جديدة . عينا العجوز تجوسان ، باحثتين عن نفَس هواء مايتحرّك حولنا ، كي يكشف حضوره ، لكأنه يمشي في الغرفة على أربع ، هكذا كنّا نحسّ ، مع اقشعرار جلدنا ، وملمس فروه علينا وهو يمرّ . لكن لاصوت . لاحركة . شهيقنا وزفيرنا فقط . الطفل يتشبث بي ، ويبدو كأنه يوشك أن يدخل في إحدى نوباته . عينا العجوز تظلان تجوسان في الغرفة ، ويداها مائلتان في الهواء ، منشورتي الأصابع . الدقائق تمرّ . الساعات . نحن متجمّدون . أشد رعباً من أن نتحرك .

البقية أيضاً جرت كأنها في حلم : نُقلنا من الغرفة ، دخول الرجال الذين سيقودون روح ريزاك خارج البيت ، فراري مع الطفل من خلال السقف ، وهبوطي في عتمة بيتي الصيفي ، المحاصر بالثلوج ، حيث أستطيع الإنصات منه ، إلى مايحدث في الباحة .

نسوة القرية ، أو من يمكن أن يتحشد منهنّ بين أسيجة الحسيكة ، تجمعن هناك كي يطردن الأرواح الغريبة ، المترصدة خلف حدود المنزل بالضبط ، لتخطف روح الشيخ ، وهي تعبر في الهواء ، إنهن جالسات على الثلج ، متدثرات بعباءاتهن ، ومنقّبات ، بحيث لاتبدو إلا عيونهن ، يتمايلن أماماً ووراءً ، على عجيزاتهن ، ويقرعن معاً ، بصوت موحد يصمّ الآذان ، الأحجار المقدسة التي انتقيت من قاع النهر ، لبياضها ونعومتها ، والتي لاتُستعمل إلا لهذا الغرض ، كي تصمَ آذان الأشرار عن صرخات الشيخ ، وهكذا فإن الصرخة الأخيرة ، صرخة الموت ، سوف تمر بدون أن ينتبه اليها أحدٌ ، فتنسل روحه في الليل .

يبدأ القرع ، سلسلةً من الانفجارات الحادّة ، تملأ فراغاتها بعويل مرتفع وثلاث صرخات مثل صرخات الصقر . وعندما تتسارع الوتيرة يغدو القرع غير منتظم . لكن ، مهما كان الوقع غير مألوف عند الآذان الأجنبية ، فإن كل الأحجار تهوي في وقت واحد ، وعندما ينفتح الايقاع على تعاقب متزايد ، تشرع الأصوات في أوم ، أوم ، أوم رتيب ، ويتكرّر المقطع الأصلي الواحد ، باستمرار ، كأن الأرض نفسها تتكلم من صدغٍ ذي عدة أفواه .

في طاسات فخّار صغيرة حول الباحة ، يتصاعد دخان أعشاب ، لم أشمّه من قبل . دخانٌ يدخل المنخرين فيدوّخ المرء . بياض الجدران ، سوادُ الأشكال الذي ملأ كل مكان ، الأيدي المائلة المتحركة في آن ، اللحن الرتيب ، قرقعة الحصا ـ هذا كله يخلق نبضاً في الرأس ، يهدهد الحواس ، ثمّ يُخمدها . أجد نفسي مجلوباً إلى اتساع الضوء وانكماشه إلى الأصوات وهي

تضرب أذني ، كأنني في دوزنة نفسي ، ونبض قلبي ، لهذه الإيقاعات ، كنت أسحب ببطءٍ ، وأُفرَدُ وأُنثَرُ ، منفصلاً عن نفسي ، وعن إرادتي الفردية .

في أعلى البيت ، يقام احتفالٌ أخيرٌ ، غير مسموح لنا برؤيته ، ويُقصدُ بفوضى الأصوات هذه التغطية عليه . أنا أعرف ماهو . حكماء القرية يجهزون على حياة ريزاك بالقوة ، يضربون ويهزون النفَس الأخير ، ليخرجوه من جسده القوي العتيق ، كي يموت ريزاك مقاتلاً . أما انحطاطه إلى حالة من الضعف الطفولي فسوف يجعله عرضةً للشياطين التي تحوم هناك في الظلام ، لتخطف روحه بعيداً . إنه لَيُضرّى حتى الموت . بهذه الطريقة فقط يمكن رفع روحه المحتضرة الى هذه الدرجة من العنف ، حتى يجبن أهل الظلام إزاءها ، فيمكن لريزاك أن يعبر ، بلا مضايقة ، الى الهواء .

هذه العملية تستمر ، ربما ، لساعة . وفي النهاية ، يبرز أحد الشيوخ عند نافذة ، ويرفع ذراعيه . وعلى الفور يخيم الصمت . الأيدي تتوقف في منتصف الحركة ، والطنين ينقطع . العجوز فقط ، أُمّ ريزاك ، تطلق صرخة طويلة ، نغمةً منفرة تحافظ عليها حتى انقطاع نفسها ، ثمّ تتلقفها أخرى أصغر سنّاً ، ويستمرّون هكذا ، يطلقن الصرخة ، يمضين معها ، ويتبدّلن . بينما في داخل البيت ، يشرع الرجال يرقصون ، يدقّون الألواح الخشبية بكعوب جزماتهم . إنه السهر ، سيظل شيوخ القرية يرقصون ويشربون الشراب المخمّر حتى يسقط آخرهم في ذهول الميت . ويترنحون ، ضاحكين ، متفكهين مع بعضهم ، كأن موتاً لم يكن ، وهم يخرجون من البيت ، الى الثلج ، حيث يبولون عند جدار ، سكارى الى حدّ أن منهم من لايستطيع الوقوف على قدميه وحده ، فيتعيّن عليه أن يسند نفسه بيد ، ويحاول باليد الأخرى أن يرخي سرواله . شياطين الهواء أيضاً موضوع هذا كله . الشيوخ يحوّلون انتباه الشياطين ، وفي هذه الأثناء يشقّ أحدهم طريقه الى أرض المدفن ، هناك على الهضبة العالية . قد تكون روحه وصلت ، وهي

تدور راكبـةً ، الدائرة الكبـرى في الظلام . وبعـد يومـين ، سـوف يحـملون الجسم الى الخارج كي ينضمّ الى الروح . الآن ، تتكأكأ النسوة على الثلج ، وينتظرن . ومن بعـد أن يسـقط آخـر الراقـصين ، سـوف يـزحفـن الى داخل البيت ، وينقلن الرجل الميت ، حتى يمكن غسله وتهيئته للخوزقة .

في خـضمّ هذا كله ، وضحَ لديّ مـايجب أن أفـعله . مع مـوت ريزاك ، وبهـذه الصورة ، لم تـعـد لنا حـمـاية هنا ، أنا والطفل . لقـد نسـونا في هذا الوقت . طقـوس المـوت ، والإنشـغـال بالشـيـاطين المنتظرة ، سـمـحت لنا بالتسلّل بعيداً . فيمـا بعد ، فقط ، حين يكون آخر الطقوس قد تمّ ، سيفكّر أحـدهم ـ ربّمـا العجـوز ـ بالانتـقـام ، ويتـذكّر أن الطفل هو الذي سبّب كل هذا ، وإياي ، أنا عشيره ، العارف أو غير العارف .

أوقظُ الطفل قـبـيل الفـجـر . المـرأتـان الآن ناعـسـتـان ، ملتـمّـتـان بعباءتيهمـا ، ورأساهمـا مغطّيـان ، ومن السهل الانسلال حولهـمـا ، والخروج الى الزقاق .

الطفل لايـزال نصف نائم ، لكننـا إذ نبلغ حـدّ المـناقع والجـسـر الى جزيرتنا بين القصب ، يمسـك فجأة بيدي ، ويضحك ، ويثب وثبـةً صغيـرة ، ويحاول أن يسحبني نحوها . هو يعتقد أننا بعد حوالي أربعة شهور نوشك أن نعود ، أخيراً ، إلى حياتنا السالفة ، إلى دروسنا اليومية في المستنقع ، إلى نداءات الطيور ، إلى محاولاته المرتبكة في أجهزة حلقه ، بُغية نطق الحروف الساكنة وحروف العلّة ، هذه المختبئة هناك منذ زمن طويل ، والتي أحاول أن أساعده في العثور عليها . وقـد استاء حين جعلته يفهم أننا سنمـضي في سبيلنا .

إنه يبدو فظاً ، يمطّ شفته السفلى ، ويضرب صدري بقبضته المضمومة ـ ليس بشـدّة ، لكن تـعبيراً عن استيائه مني . يشيح بوجهه عني ، ويشرع يئنّ . ضوءٌ شاحبٌ يغـمـر المـستنقع كله ، بمـخاضاته ذات المـاء الآسن ،

وأكوام الثلج المزرقّة تحت ضوء القمر . القصب يُصدر حفيفاً ، والقمر ينزلق داخل الغيوم وخارجها . الطفل يحنّ إلى ضوئه في الأرض الصلدة الآمنة خلفنا ، وعليّ أن أمسك بقبائه ، وأخيراً ، بيده ، لأقوده . ربما أنذره شيء ما في تصرفي ، في أن الأمر ليس لعباً ، وأن رفضي دخول الحياة السالفة ليس محض رغبة مني . هو يتبعني ، متباطئاً قليلاً ، ونمضي عبر المناقع نحو النهر ، الذي أعرف أنه يقع في مكان ما ، شمالاً ، على مبعدة يومين أو ثلاثة ، سيراً على الأقدام ، مخترقين أرضاً يثقل فيها السير ، إلا أننا لن نخلف عليها آثاراً لاجتيازنا .

خطّتي أن نعبر النهر ، وهو لايزال متجمداً ، ونهرب لنلوذ بالسهوب ، إنها خطّة متهوّرة لكنني لاأستطيع أن أفكر بغيرها . شيء في أعماقي يخبرني باتّباعها ، وبأن هذا الاتّباع كان مقصوداً على الدوام .

أفكر بأحلامي . بكل تلك الليالي حين اتّخذت طريقي خارجاً إلى هناك في النوم ، لأنبش في الثرى ، باحثاً عن قبري . وبذلك الحلم الذي لاقيتُ فيه فرساناً كالآلهة . أنا خارج الآن إلى المجهول ، المجهول الحقيقي ، حيث لاتُعَدُ توميس ، مقارنةً به ، إلا مخفراً أمامياً لروما ، منحطّاً ، وأعتقد أنني أمضي في الممرّ الواضح لقَدَري .

أن أتقدم دائماً هكذا ، ووراء ماأعرف لايمكن أن تكون تخومٌ ـ وإلا ، فكيف ينبغي أن تكون حياة الإنسان ؟ وبخاصة حين يكون شيخاً ، حُرِّرَ بضربة حظ واضحة ، وبعنف ، من الأمان المريح الذي يجعل الشيوخ سعداء للغرق في العمى ، والصمم ، وشلل كل رغبة وإحساس . كيف ينبغي أن تكون الحياة ، إن لم تكن سلسلة مستمرة من البدايات ، من الانطلاقات المؤلمة في المجهول ، سائرين من حدود الوعي إلى سرّ ما لم نصِرْهُ بعد ، إلا في الأحلام التي تهبّ من هناك ، حاملةً ضوعَ الجُزر التي لم نبصرها ، بعد ، في ساعات يقظتنا ، كما في الرحلات البحرية أحياناً ، حين تأتي أولى

أغصان المرفأ القادم ، مرتطمة بالسفينة ، حتى في الظلام ، قبل أن تبرز الأرض الحقيقية للقائنا .

صرت أكثر شجاعةً في شيخوختي ، مستعداً ، لكل التغيّرات التي يجب أن نمر بها ، عندما نسمح ، وبألم ، لأطرافنا ، أن تنفجر في شكل جديد ، ونترك أديم جلدنا يتكسّر ، لتطلع الشجرة ، وتغادرنا الفراشة أو الطير نحو الهواء . وهل يعني الموت سوى الامتناع عن النماء ومعاناة التغيّر ؟ ها أنذا الضعيف السخيف ، قد نجوت . أنا آخر شعراء عصرنا ، لاأزال موجوداً ، لاأزال أعمل ، حتى في الصمت . وإن أراد شيوخٌ آخرون أن يغادروا سرير موتهم ويغامروا في المجهول ، فماذا يريد أكثر ، ذلك الرجل الذي كانت حياته كلها تمريناً على المغامرة ، حتى في سكون حديقته ؟ أعني الشاعر .

وهكذا نمضي متعثرين ، الطفل وأنا ، نحو ذلك القوس المائي الغامض الذي عرفت اسمه طوال حياتي ، باعتباره يعيّن حدود عالمنا الروماني ، والذي أعطاني مقطعاه ، إسـ ـ تير ، دائماً ، حتى أيام كانت هذه الأفكار مجرد انغماس رومانسيّ ، ارتعاشةً في أعماقي ، أُريد أن أجعلها فعليةً ، أخيراً . إسـ ـتير . لقد كان هناك على الدوام ، في نوع من الانتظار ، حتى حين رأته عيناي على الخرائط ، باعتباره الحدّ النهائي لحياتي ، ينتظرني لأعبره ، صبوراً عاماً بعد عام ، يريد وصولي . ومهما ابتعدت خطاي عنه ، في الواقع ، وفي الذهن ، فقد ظلّ يحرّك أمواجه ، يتجمد كل فصل ، يتكسر ، يفيض ثانيةً ، هامساً لي :

أنا الحدود التي يجب أن تتخطاها
إن أردت أن تجد حياتك الحقيقية ،
موتك الحقيقي في النهاية .

كيف استطعتُ أن أحزر الأمر ، أنا النائم مرتاحاً في سريري الصغير ذي

الدواليب ، بـ«سالمو» ، أنا الابن الثاني المدلل لمالك أرض غنيّ ؟ ماذا عليّ أن أفعل بهذا النهر الأخير للعالم المعروف ؟ أنا الذي أكتب قصائد رومانسية متغربة في حديقة بالعاصمة ، متخماً بالطعام ، ثملاً بالخمر والكلام ، أعرض خرافات مسرفةً عن المجهول ، ماحاجتي إلى سماع مدّه في مكان ما ، عميق ، بمؤخرة رأسي ، يطحن جبال جليده ، يشقّقَها ، ويندفع بأمياله الألف نحو البحر ؟ الآن ، أخيراً ، وفي الضوء الأول لصباح شتاء متأخر ، عند حافة الربيع ، أمضي في طريقي اليه ، عبر المستنقع الباهر ، حاملاً معي طفلاً لم أكن أتوقع ، البتة ، أن أجده ثانيةً في نقطة النهاية هذه لحياتي ، ومتوقفاً ، حتى وسط أمواه المستنقع الواسع ، لأنصت اليه ، لصوت هديرٍ في مكانٍ ما وراء الأفق هناك ، حيث تدور طيور البحر .

حلّت الساعة أخيراً . بعيداً نحو الشمال ، وعميقاً في المعَاشب الممتدة حتى القطب ، يقع المكان الذي طالما حلمت به في سنوات منفاي هذه ، سائراً في منامي تحت الغيوم العالية المضوّأة بالقمر . الأرض التي سأدخلها غير أليفة ، إطلاقاً .

وهناك ، بعد كل هذه الفصول ، النهر . إســ ـ تير . هذان المقطعان السحريان ولدا من أنفاسي . النهر ، جامداً ، صُلباً ، ينتظر ، في هذه الأيام الأخيرة قبل ذوبانه وتدفقه ثانيةً ، أن أعبره . وبينما أنا والطفل نعبره في ضوء القمر ، كانت الضجة تصمّ الآذان ، الهديرُ ، والتكسّر ، وانطحان بياضه تحت أقدامنا . وفي منتصف العبور ، بعيداً في متاهته المتألقة ، لانستطيع أن نرى شيئاً ، لا الشاطىء الذي خلّفناه ، ولا الآخر الذي يقع في مكان ما ، أمامنا . وأخيراً ، وعيناي نصف مغمضتين إزاء الضوء الباهر ، أُميّزُ خطاً معتماً رفيعاً أفقياً ، حيث الأرض تعلن نفسها صلبةً ، من جديد .

في موضع من منتصف عبورنا ، شعرت بخوف بارد من أنه قد لا يكون ثمة شاطىء آخر ، وأن إستير قد يكون بلا ضفة على الناحية الأخرى ، نهراً

يتـجمّـد ويفيـض عند الحـدّ بين الأرض والهـواء ، وأن كل تلك القـصص عن المعـاشب ، وفـرسانهـا العمـالقة ، هي أضـغـاث أحلام ، حتى حـين جاؤوا ، مرعدين ، عابرين جسر الجليد ، وحمينا حصننا المحاصر بالثلوج ، ضدهم .

لكن الأرض مستمرة . حتى وراء إستير . ثمة عالمٌ آخر .

لقد بلغنا الشواطىء ، ونحن نتهيأ للدخول .

5

لامزيد من الأحلام . لقد تجاوزناها ، ودخلنا في الحقيقة الأخيرة .

المَعاشب ، وقد لمسها الربيع لمسته الأولى ، تتموج وتترقرق كالبحر ، حتى أن التغلغل فيها ، والسباحة أحياناً في العشب الذي يُطاول الصدرَ ، يجعلان المرء يحسّ بأنه يطفو ، ولايمشي بلا معالم ، على مدى ماترى العين . فوقنا ، اتساعٌ لسماء زرقاء ، ليس فيها سوى غيوم صغيرة عالية ، مثل سقف .

أما هناك ، وراء النهر ، في الشجراء ، فإن ندرة ماتتركز عليه العين ، تُعتبر حرماناً للروح ، وقد أمضيت وقتي كله أحنُ إلى شيء يكسر خطّ السماء ، مثل صنوبرة رشيقة داكنة في وطني ، أو شجرة كستناء تنسكب الشمس فيها ، لتغدو كل ورقة كبيرة ، شفافةً ، خضراء مضيئة . هنا ، الاتّساع ، الفراغ ، يَغذُوان الروح ، فلا تجوع إلا لمزيد من الفضاء ، لمزيد من الضياء ـ كأن المرء لمح ، فجأةً ، اتّسَاع روحه وفراغها ، فتصالحَ معها ، ممجّداً ، أخيراً ، حريتَها المفتوحة .

وهكذا يتحرك المرء هنا كأنه في جو آخر . وكأن الهواء نفسه مختلفٌ ، أخفُ في الرأس ، مثل هواء الجبال ، أحياناً ، عند القمم . حتى عظامي تبدو أخفّ ، ومع أني متعبٌ أكثر من التعب ، بسبب هذه الأيام الطويلة من الصعود

شمالاً في السماء ، فإن جسمي لا يشعر بأي وجع ، فقط بنوع من الضآلة يعود الى الجسم نفسه . أُحسُ أحياناً بأنني كنت أتقدمُ على مستويين مختلفين . أرانا ، كما من علو شاهقٍ ، شكلين صغيرين يشقّان الأرض المعشّبة في خطّ باهت نتحرّك من خلاله ، مثل سبّاحين ، ومن ذلك العلوّ يكون تعب الجسم مثل لاشيء . الوجع الطبيعي موجود ، لكن لايمكن الاحساس به عبر مسافة كهذه ، كالصرخة المنطلقة في البعيد لا يمكن سماعها . الروح تمارس مايفعله الجسم لكن بشكل آخر . إنها لاتتقدّم في خطّ مع الجسم ، شمالاً ، قاسمةً ضوء الأعشاب . إنها تتوسع ، لتكوّن المشهد كاملاً . كأن الفضاء نفسه أبعادُها ، مالئةً الأرض بأسرها ، من أفق الى أفق ، وقوس السماء بالكامل ، سيماؤها الآن ، الهواء الأنقى ، والعدد الهائل من جزئيات النور ، وكل جُزَيء مركزٌ صغيرٌ ، يمكن منه الإمساك بالكل في نظرة واحدة ، ومن موضعه الأسمى ، في الأعالي ، أرى هذين الشكلين الضئيلين يزحفان ، وهما الطفل وأنا . من موضع بعيد أمامنا ، أرانا نقترب . من موضع مسافة يوم كامل ، خلفنا ، أرانا نبتعد .

في المساء تتحرّك ظلال كبيرة على التلال ، هابطةً في التجاويف ، ومعمقةً المنحدرات ، اللطيفة بما يكفي حين بلغناها . في الأيام الساكنة ، لاصوت إلا للأجنحة ، ولرفيف الحشرات حولنا وهي تتجمع عند جذور العشب أو ترفرف في الهواء . حين تهب ريح الشمال يكون التجمد ، وتنقع الأرض . آنذاك نزحف هابطين ، مثل الحشرات ، تحت الجذور ، ونترك البحر العظيم يطوينا . لكن حين تهبّ ريح الجنوب يكون الدفء مع أنفاس الربيع الأول . ومن الآن ، في كل مكان حولنا ، بشائر الربيع زهور برية صغيرة تبرز ، عميقاً ، في العشب . يرقاناتٌ يجمعها الطفل ونغتذيها ، أوائل الطيور العائدة أسراباً الى رؤوس الأعشاب الناضجة ـ سحبٌ عظيمة من الطيور طافية في السماء ، وهابطة مثل غيم منخفض على الأعالي ، مندفعة

فجأة أمامنا في شكل قِمْعٍ كأنها منزعجة من تطفلنا على كونها وهي تتغذى .

إنه عالم الطفل أخيراً . إنه ينغمر فيه مبتهجاً ، ويسحبني بعده ، وفي كل الجهات يجد مسرّات صغيرة يثب اليها مثل أشياء ضاعت ولم يتوقع ، البته ، أن يجدها ثانيةً . يجلب لي بيض طيور ، ويقدمه لي ، بلطف ، على راحتيه ، مشيراً الى البُقع ، ومُطلقاً صيحات صغيرة كي يخبرني لأي طير هذا البيض . وفي بعض الأحيان ، ومن قبضة ست بيضات أو سبع ، يقدّم لي واحدة لأمتصّها ، ناقفاً كل بيضة بساق عشبٍ ، من طرفيها ، ويريني كيف يسحب مابداخلها من نعمة . يعطيني بذوراً لآكل . وقشاً لأمضغ ، يجد جذوراً حلوةً ، ودرنات ، يحفر عليها بأظافره ويستخرجها ، وينظفها بإبهامه لتكون جاهزةً لي ، أعلُكها ، أو أبتلعها حين أستطيع ، مبيّناً ، بأسنانه القوية ، كيف تُقشّر وتُسحَق لُبّاً ، وتُنبَذُ خيوط أليافها . يجد نوعاً من الخبّازى في قرنه قطرة عسل ، يميل برأسه الى وراء ، ويدبّب لسانه ، ويُريني كيف يأخذ القطرة الوحيدة اللزجة ، ويضحك إذ أحاول أن أفعل مثله . عيناه في كل مكان ، تبحثان ، ونحن نسير ، عن كل شيء يمكن أن نأكله فيقيتنا .

الأيام تمرّ ، وأنقطعُ عن عدّها . النهر خلفنا ، بعيدٌ .

بين وقت وآخر ، وبعيداً عن إحدى قمم التلال ، نرى فرساناً ، ونرقب العشب ينفرج ويُظلم ، حين ينحدرون أسفل التل ـ الى أين ؟ نحو ماذا ؟ نحن لانعرف أبداً كما لن نجد أحداً منهم أقرب .

حدث مرةً أو مرتين ، في الليل ، أن أستيقظ ، لأجد الطفل جالساً منتصباً بجانبي ، وهو ينصت . أنا لاأسمع شيئاً ، لكنّي أعرف ما هو . إنها الذئاب ، قريبة . عندما يقترب أحدها ، ينهض بخفّة ، ويقف ، مرتفع القامة ، في الظلام ، ويصدر من حلقه زمجراتٍ صغيرة فأرى عينيَ الذئب تومضان خضراوين قبل أن يقفز مبتعداً .

لم أعد أسأل نفسي الى أين نحن ذاهبان . وفكرة الوجهة لم تعد ضرورية لي ، كما يبدو . لقد ابتلعها اتّساع هذا المشهد ، مثل ما ابتُلعت الأيام بإحساسي الآن بحياة تمتدّ أبعد من حدود الزمن المقيس . أهذا ما يفعله الشامان حين يغيب عن الدائرة التي خطها بيديهِ ، والتي يجلس فيها جسمه ؟ ـ هذه المغامرة في فضاء ليست له أبعادٌ طبيعيةٌ ، وفي زمن قد يكون بالحسابات البشرية ، بضعَ دقائق فقط ، لكنه الأبدية أيضاً . أهذه هي الأرض التي عبرتْها روحه في طريقها الى القطب ؟ وهل ذلك هو مايوجد في الطرف البعيد من هذا السهل المعشب ؟

القطب ؟ أترانا ذاهبين الى هناك ، الطفل وأنا ؟ كم سنستغرقُ للوصول الى هناك ؟ وفي غِشية من أقوم بهذه الرحلة ؟ ومن هو رفيقي ؟

أسألُ نفسي . وأنا أراقبه يتحرك في النور على مبعدة أقدام قليلة مني ، عارياً ، شأنه في كل هذه الأيام الأخيرة ، ماثلاً في سكون ، نصف ناهض على قدم واحدة ، وجسمه كله متيقّظ لكل ما في العشب وراءه ـ من هو هذا الطفل الذي يقودني ، أعمق ، في الأرض ، أعمق ، في الأرض ، أبعد من آخر مخفر أمامي مأهول في العالم المعروف ، أبعدحتى من الكلام ، في المعاشب المتنهدة التي هي صمتٌ ؟ من أين جاء ؟ خارج أي حياة ؟ خارج أي زمن ؟ هل اكتشفته حقاً ، هناك ، في غابات الصنوبر ، أم هو الذي اكتشفني ، أو أعادَ اكتشافي ، بسبب غربتي عن عالم البشر ؟ أهو طفل أيامي الأولى تحت زيتونات «سالمو» ؟ أهو الطفلُ نفسه ؟ أثمت واحدٌ فقط ؟ والى أين يقودني ، مادمت أعرف ، أخيراً ، أنه هو الدليل ؟ وهو الذي يُدخلني في أسرار عالمٍ لم أفهمه ، للحظةٍ ، قَطُ .

أن نطوف معاً ، متوغّلين في الأعشاب العالية جنباً الى جنب ، نوعٌ من المحادثة التي لاتحتاج الى لسان ، تبادُل مدركات ممتاز ، أمزجة ، أسئلة ،أجوبة ، وهذا البسيط كالجوّ ، هو في الحقيقة مجرّد انتقال ظلام غيم

عبر أراضٍ ، أو عبر سطح بحيرة ، فالأفكار وهي تخرج ذائبةً من ذهن لتدخل في آخر ، هي غيمٌ وظلٌ ، وليست لها بنى الكلام الشكلي . مثل جانب من الرأس يوصلُ الأفكار الى الجانب الآخر ، العارف بتوهج مسبق ، قبل أن تصل الأفكارُ ، ما سيكون ، فقد كان استقبلَ ظلّ إضاءتها .

أنا أغدو بلا جسم . أنا منْظر . أُحسُني أتمايل ، أتموّج ، أحسُني أتّسع علواً . نحو قبة السماء الزرقاء . أإلى هناك نحن سائرون ؟

تبدو الأرض ، الآن وأنا أوشك أن أفارقها ، جد قريبة أخيراً . أستيقظُ فأرى جذور العشب هائلة الحجم ، بالنظر لقربها من حدقتي ، حتى لكأني أنظر من خلال جذوع أشجار في غابة مجهولة . وبين الجذور ، عشرات الآلاف من ذرّات التراب المكوّرة ، تمسكها ، وتُغذيها ، دقيقةً جداً ، مرئية جداً ، فأدركتُ فجأةً العملية التي يتمّ بها تدفّق الطاقة ، الى أعلى ، من خلال السيقان الذهب . إنها شبه شفافة هذه النبتات اللطيفة الطويلة ، وبإمكان المرء أن يحدّق في داخلها ويرى النسغ يَصّاعَدُ في فقاعات . إنها أعمدة نور ، قنوات منتصبة تغتذي بها الأرضُ السماء . وفي قمتها ، البعيدة ، حتى لتبدو ممتنعة عن البلوغ ، رؤوس العشب الشبيهة بالريش ، تكتنز وتومىء في النسيم ، ويصعد الى بذورها الحلوة ، كلُ غنى الأرض .

حول قاعدة هذه الجذور ، لائذةً كما في غابة ، وباحثةً عن طعامها ، المخلوقات الصغرى : الأرضة ، النمل ، أبو مقصّ . الخرطون ، الخنافس ، عالمٌ ثانٍ ، ونظامٌ للوجود مختلفٌ ، مزدحمٌ ومنشغلٌ في المسار اللانهائي للخليقة والبقاء والموت . وهانحن أولاً جئنا لننضمّ إليهم . دفء الأرض تحتي ، وأنا متمدّد ليلاً في العراء ، مدهشٌ كأنه دفء جسم آخر امتصّ الشمس طوال النهار ، والآن يمنحُ ثانيةً ، مااختزنه من حرارة . عندما أخذ حفنةً من هذا التراب ، وأشمّ روائحها الرائعة ، أعرف فجأةً ما أنا مكوّنٌ منه ،

كأن هذه القبضة من التراب الأسود فتحتْ بغتةً ، بين جسمي وبينها ، كما بينها وبين سيقان العشب ، ممراً تجري فيه كينونتنا المشتركة . لم أعد أخاف التراب ، أتمدّد لأنام ، وأتساءل ، إن كنتُ في طلاقة النوم ، سوف أشرّش جذوراً على طول جسمي ، وما أن أدخل في الحلم الأول ، حتى أشعر بأن هذا قد بدأ ، وبأن مساماتي المنفردة ، تتفتح لذرّات التراب المنفردة . وعندما أفيقُ أكون مرتاحاً تماماً للعملية .

سأسكن عميقاً في التراب ، أعمق مما أفعل في النوم ، ولن أضيع . نحن مستمرّون مع التراب في كل جزيئات كينونتنا الطبيعية ، مثل ما أننا مستمرون مع السماء في تنفّسنا . بين أجسامنا وبين العالم وحدة وتبادلٌ .

ربما لهذا السبب ، يبدو تفتّح الأرض حولنا ، في جدة الربيع ، هذه المرة ، كأنه يجري في طرف أعصابي نفسه . تَفتّح النوّارة الهرّية الصغيرة التي نراها أحياناً على الشجيرات ، لزوجةُ الأوراق الجديدة التي تبدأ مثل مستدقة لامعة ، ثمّ تتفتّح من تلقاء نفسها ، فجأةً ، مثل قلوب صغيرة مسننةً . كل هذا ، وفي هذا المدى اللصيق ، يبدو معجزاً ، وكذلك انفجار الأجنحة الكثيرة في الهواء .

غشاءٌ يتوتّر ويتوتّر ، يغدو شفافاً ، حتى يتبدّى مرئياً ، بكل أجزائه ، المخلوق الذي كان في الداخل يتحرّك ويفيق ، مرغماً غلافَه كي يكون على وشك الانفتاح ، إلى أن يحلّ الوقت الذي يصير فيه جناحاه المطويّان آمنين في معرفة الطيران ، وفي تقلّبات الهواء ، وحينذاك يخفق حراً بجناحيه . الأرض بأسرها ، تَصرُ وتتوتر في الظلام . الأصوات هيّنة ، لكن الآذان الملتصقة بالأرض تسمعها تماماً . أفكر أحياناً ، أنني لوأنصتُ جيداً لسمعت جسمي كله يتفتح بالطريقة ذاتها ، مزيحاً الغلاف الرقيق الشفّاف الذي لا يزال يحتويه ، ويمنعه من أن ينفجر في هيأة جديدة ، أحسّت بنفسها ، منذ الآن ، باعتبارها كائناً ، شيئاً مختلفاً عمّا نعرف ، كما الفراشة من الخادرة .

الطفلُ أيضاً ، يبدو لي كمن اكتسب كينونةً جديدة هنا ، ولم أعد أسأل نفسي عن أذى يمكن أني سبّبته له . هو ، كذلك ، نجا ، من الفصل الذي أمضاه بين البشر . وإن فيه لطاقةً جديدة . فهو أخفُ ، ويتحرّك أسرع على الأرض . منتبهٌ لكل حركة في الريح ، وكل حالة في السماء فهي تنبئنا بالجو ، غداً ، وبعد غد ، منتبهٌ الى كل رائحةً من مئات الحشائش والأعشاب والبراعم المكتنزة الصغيرة . التي تنشر حولنا جزئياتها غير المرئية . هذه الحشائش وطفيلياتها ، الديدان ، اليرقات ، الجنادب المجنّحة ، هي التي تزوّدنا الغذاء . الطفل يجمعها حيثما تعلّقتْ . إنها تغذو حلقاتها على الأرض . مخلوقٌ يرعى ، يأخذ النعمةَ ، يوصلها الى فم مخلوق آخر . نحن في آخر السلسلة . بُكرةَ كل يوم ، يصطاد الطفل ، مُطعماً إياي الآن من عالمه ، كما أطعمته يوماً من عالمنا .

أرقبه ، واقفاً في الغسق ، في طرف أي مكان كنّا وجدناه لنستريح ، الليل ، محدقاً نحو الشمال في الاتّساع الهائل للعشب .

أيعرف ماهناك ؟ أهو يعود الى مكان معروف ، ويقودني الى هناك ؟ الآن ، أغدو ، كل يوم ، أقل فأقلّ قدرةً على المضيّ الى أي هدف ـ لم يُعلن بعد ، وسط أميال العشب ـ نحن متجهون اليه . أيعرف الى أين يأخذنا ؟ أشعرُ بتلهّفه الى التحرك أماماً ، حتى وهو واقفٌ في الغسق ، ساكنٌ تماماً إزاء حمرة السماء ، موجّهاً عينه الى أمام ، حيث سنكون ، عند قمة ذلك المرتفع الأبعد ، في هذا الوقت من ليل الغد . أراقبه وأتساءل تُرى ، أي شيء في ذهنه يجعل لراحتنا هدفاً . إن جسمه بأكمله يَنْشدُ نحو مسافة لا أستطيع أن ألتقطها من مكاني وأنا متمدّد في الظل .

إني مليء بها ، بتلهف مقموع الى المَدَيات الأبعد لما يمكن أن يراه . وأنا أشعر بذلك ، متّقداً فيه ، وهو ينحني كي يأتيني بما وجده لنا من طعام ، فارزاً البذور ، بأناة ، لي ، أو موضحاً لي كيف أتناول حلازين

الماء ، أو معتصراً قطرات ماء من خرقة ليبلل شفتيّ... إنه أقرب الآن ممّا ظننته ممكناً . في تلك الأيام الأولى ، لم يكن ممكناً إدراك أنه سيكتشف في نفسه هذه القربى الرؤوم مع البشر ، التي تتبدّى الآن في كل لحظة من اهتمامه بي .

ومع هذا ، وبالرغم من كل هذا القرب ، يبدو منتسباً ، أكثر فأكثر ، إلى عالمٍ يقع بعيداً عنّي تماماً ، وبعيداً عن خيالي البشري .

لكأنه دخل ، في آنٍ واحد ، عالمين منفصلين ، أراقبه يركع في إحدى مهماته المتواضعة ، يطعمني ، أو ينظّفني من وَضَر شيخوختي ، وفي الوقت نفسه ، حين أُصَعّد نظري ، أراه واقفاً على مبعدة قدم ، مثل ما رأيته أول مرة ، في غابة الصنوبر ، شيخاً نحيلاً ، متوهجاً ، عارياً في الغسق ، مبتعداً عنّي في ذهنه ، مُنْشَدّاً الى الأمام ، أي الى حياة ، مهما كانت ، حياة تقع وراء لحظتنا المشتركة ، حياة لم آخذها بالحسبان ، ولسوف يكون حراً في دخولها ، فقط حين تنتهي رحلتنا المشتركة . أردتُ أن أستنقذ من الحيوان الذي فيه ، فكرةً عمّا ينبغي أن يكون أحدٌ بشراً . وأنا أتساءل إن كان لم يشرع ، منذ الآن ، يكتشف في نفسه ، مخلوقاً آخر . أهو ، في الحقيقة ، كما ظنه القرويون (رأيهم كان على الدوام أبسط من رأيي ، ولهذا ، فهو أقرب الى الصواب) من نسل الآلهة ؟ أهي طبيعته الخاصة ، باعتباره إلهاً ، جعلت جسمه يتوتّر الى أمام ، في هذا الحدّ من حياته ، حيث أي طفل طبيعيّ ، قد يكون موشكاً على الرجولة ، وعلى الدخول في امتثالاته ، باعتباره رجلاً ؟

إنه ينتقل خارج الرؤية ، مُطوّفاً هناك ، غامضاً ومتوهجاً ، تماماً وراء قدرة عيني على تمييز ماترى . وفي الوقت نفسه ، يجلس منحني الظهر ، مقتعداً الأرض ، ويداه الخشنتان ذواتا الأظافر المشققة المتكسّرة ، تجدّان ، لتهيئا لي ، الطعام الذي لا أكاد أبتلعه الآن . إنه يشقى كثيراً ، وهو يمضغ لي

نصف مضغ ، الدرنات الليفية كي يجعلها سائغةً ، ويطعمني اللُباب ، مثل ما رأى الحيوان يفعل لصغاره .

وهكذا ، وصلنا . وصلنا الى المكان ، لقد خطُوت خطواتي الأخيرة ، وبالرغم من أنه لايعرف هذا ، حتى الآن ، إذ ابتعد ، كالمعتاد ، كي يأتي بعلف وجبتنا المسائية . من هنا أصعدُ ، أو أُخفضُ نفسي ، حبةً إثر حبة ، بين أيدي الالهة . إنه المكان الذي حلمت به طويلاً ، هناك في «توميس» ، إلا أنني لم أستطع أن أجد في كل جولات أحلامي ، تلك النقطة على وجه الأرض ، حيث أختفي .

لم يكن الأمر كما تخيّلت . ليس ثمة ذئاب . إنه لنورُ شمس صاف ، في نهاية يوم مثل الأيام الأخرى التي أمضيناها هنا ، في العراء ، يوم ربيعي دافىء لطيف . القبرات في الهواء ، والحشرات تصخب تحت أقدامنا . الطفل هنا . أراقبه يمضي مبتعداً على حافة الجدول ، ينحني ، يركع ، ينطلق ثانيةً في السرعة التي منحها الربيعُ ، وهو يجمع الحلازين من بين الطحالب والأعشاب .

غريبٌ أن أعود ، فأنظر الى الأراضي الشاسعة التي جاهدنا لنقطعها كل تلك الأسابيع ، عبر البحر ، عبر حياتي في روما ، عبر طفولتي ، لألحظ كيف أن آثار الأقدام تؤدي بوضوح إلى هذا المكان ، وليس إلى سواه ، إنها تشعّ في رأسي ، هذه الخطوات كلها ، وأستطيع في ذهني أن أتتبعها ، عائداً ، أحسّ بنفسي مع كل خطوة مستردة ، أصغر ، حتى أصل إلى ذكرياتي المبكّرة ، وإذ بي أجلس في النور المتفاوت لأشجار الزيتون عند حافة مزرعتنا ، وثمة راعٍ للماعز ينعس مستنداً إلى إحدى الزيتونات ، رأسه الخشن مائل الى الخلف ، وحلقه مكشوفٌ ، كأنه كان ينام هكذا ، مثل ما أتذكره ، منذ ستين عاماً تقريباً . معزى كانت منتصبة على قائمتيها الخلفيّتين لتأكل أوراق العنب الطرية . إنه الربيع . إنه الصيف . أنا في الثالثة من عمري . أنا في الستين .

الطفل هناك .

يلتفتُ لحظةً ، ناظراً إليّ ، عبر كتفيه اللتين يلمسهما نور الشمس ، ثمّ ينحني ليلتقط حلزوناً آخر من حافة الجدول . ينهض ويمضي . الجدول ينفض نوره حول كعبيه ، وهو يخوّض أعمق ، ثم يعتلي صخرة ملساء ويتوازن لحظةً في الشمس ، يَثبُ ، يثب ثانيةً ، ثم يتحوّل صاعداً مع الجدول على الضفة الأخرى ، التي هي حصباء ، كلُ حصاة فيها بيضاء ، سوداء ، رمادية ، منتقاة ، ولامعة في ضوء الشمس الأخير ، كأنها في موزاييك ، حيث يتوقّف ، ويلتقط حلزوناً ، اثنين ، ثلاثة ، ومع الجدول المترقرق ، يقفز خارجاً ، داخلاً ، ويسير ، راكلاً الحصا ، منغمساً لحظةً في بهجته الطفولية لكونه حراً .

بإمكاني أن أناديه . أنا أملك صوتاً لذلك . لكني لاأفعل . بمناداته قد يفوتني امتلاء هذه اللحظة وهي توشك أن تتكشّف ، وأنا أرغب كثيراً ، مع نهايتي هنا ، في أن أكون منفتحاً على كل مايظل أميناً لي .

الامتلاءُ هو في اتجاه الطفل بعيداً عني ، هو في خطوه هذا الخفيف البهيج ، عارياً ، داخل مسافته الخاصة أخيراً ، وهو يبهت داخل وخارج الضوء الباهر المنبعث من الماء ، وينحني ليلتقط ـ ماذا ؟ حصباء ؟ أتلك التي انجذبت إليها عيناه ؟ الحصاة الأكثر رماديةً ، والأجمل خطوطاً ؟ أم أنه نسيَ كل غرض ، يتحرك لبهجة الحركة فقط ، مخوّضاً أعمق في النور ، وتاركاً الحلازين الحية الصالحة للأكل تتساقط من بين يديه ، الحلازين التي لم تَعُدْ ضروريةً لحياتي ، وبالإمكان تركها الآن لتعود الى حياتها ، والحصباءالتي حيثما مسّت الأرض ارتدّت فجأةً كالفراشات ، التي تشكل أجنحتُها البراقةُ قوسَ قزحٍ في الجدول .

هو يمشي على نور الماء . وبينما أنا أرقبهُ ، يخطو خطواته الأولى

مبتعداً ، ويسير ببطء ، وبعيداً الآن ، في المسافة الأعمق ، فوق الأرض ، فوق الماء ، فوقَ الهواء .

إنه الصيف .

إنه الربيع .

وأنا سعيدٌ الى حدٍّ لايقاس .

الى حدٍّ لايُحْتَمل .

أنا في الثالثة من عمري .

أنا في الستين .

أنا في السادسة .

أنا هناك .

انتهت الرواية

مؤخّرة: ملحوظة حول المصادر

نعرف القليل القليل عن حياة أوفيد ، وقد جعله غياب الوقائع هذا ، نافعاً باعتباره الشخصية المركزية لحكايتي ، وسمح لي بحرية الابتداع الطليق ، فما أردت أن أكتبه ليس روايةً تاريخيةً ولا سيرة ، بل قصةً تمد جذورها في الحدث الممكن .

الأمور التي نعرفها ، مصدرُها الشاعر نفسه : مكان وتاريخ ميلاده ، موت أخيه الذي يكبره بعام واحد في ميعة الصبا ، والمنفى الشهير طبعاً ـ مع أننا لانملك تفسيراً لسببه . أوفيد ممثلٌ الى حد كبير ، ميّالٌ الى المبالغة ، بُغية التأثير ، لهذا فإن مايخبرنا به لايمكن اعتماده كثيراً . استخدمت قصيدته عن المنفى ، «تريتيا» في وصفي «توميس» واعتمدت على الكتاب الثالث من «فاستي» ، ودراسته عن الأعياد الرومانية الرئيسية ، في تفاصيل عيد «باريليا» . أما إشارتي الى القبور السيثية فهي من هيرودتس .

أما اللقاء مع الطفل ، الذي يشكّل القسم الأكبر من هذا الكتاب ، فليس له أساس في الواقع ، لكني تثبّت من وصفي اعتماداً على أفضل حصيلة لظاهرة كهذه . ملحوظات ج . م . ج إيتارد ، الدقيقة ، عن فيكتور ، صبيّ آفيرون المتوحش ، التي لايمكن لأي كاتبٍ إهمالُها .

إن استغراق إيتارد هو استغراق المعلم ، المتأتّي من القرن الثامن

عشر ، والمعني أكثر بمشكلات الخبرة الفطرية والمكتسبة . وجزئياً من أجل الانطلاق في ميدان ذي إمكانات مفتوحة أكثر ، جعلتُ حكايتي تدور في مكانٍ ناءٍ يكاد لايعرف أحدٌ شيئاً عنه ، وفي زمان هو فجر المسيحية ، حين كان الشعور بفعل القوى الغامضة قائماً ، وحين كان التفكير لم يستقر ، بعدُ ، على صيغة عقلانية .

وفي وقت غرقت فيه الفترة الرومانية ، قرابة ألف عام ، في قتام كثيف ، صار أوفيد شخصيةً شعبيةً في الميثولوجيا ، وكان من نتائج البحث عن قبره تقديسُ مواقع اسطورية لكنها زائفة ، يمتد بعضها بعيداً عن مكان منفاه الأصلي ، حتى ليبلغ أواسط المجر . إن التاريخ الفعلي لموته ، وسبب هذا الموت ، يظلان غامضين .

كان أوفيد ، لقارىء عصر النهضة ، أحدث الشعراء اللاتين ، وأكثرهم مألوفيةً وقرباً ، وإنسانيةً . كان نزوعه الى الشك ، موازناً بحبّ الخرافيّ والمتجاوز . هذه الميزة الحديثة ، حاولتُ إعادةَ خلقها ، مع أن المصير الذي حَمّلته إياه وراء حقيقة إبعاده الى «توميس» من الأمور التي كانت ستدهش الشاعر الحقيقي ، إذ نسبت اليه قدرةً على الإيمان لايمكن أن نجدها في كتاباته . لكن هذه هي النقطة الأساسية بالضبط . كان غرضي أن أجعل شاعر «مَسخِ الكائنات» الذرِب ، يعيش ، فعلاً ، ما كان ، في وجوده السابق ، مجرّد مناسبة للتباهي الأدبي المتألّق .

رسالتان بين المترجم والمؤلف

١٩٩٥/١٠/١٥

سيدي

آنَ كنت في سيدني ، قبل حوالي خمسة أشهر ، سألت عنك ، وحاولتُ ، عبثاً ، الاتصال بك ، لكنك كنت في إيطاليا ، كما قيل لي .

لقد قرأت روايتك الممتازة «حياة متخيلة» ، وروايتيك القصيرتين : «لعبة الطفل» و«خبز الآتي» إلا أني وجدت خصوصيةً ما في «حياة متخيلة» ، ربما لأنني شاعرٌ منفيٌ منذ أكثر من خمس وعشرين سنة .

لقد ترجمتُها ، فعلاً إلى اللغة العربية .

وما كان الأمر هيِّناً!

والآن ، أفكرُ بنشرها ، لكن ذلك مرهونٌ بموافقتك .

لقد وضعت للرواية عنواناً ثانوياً ، هو «أوفيد في المنفى» ، بسبب الطبيعة الثقافية للقارىء العربي .

أرجو أن أعرف جوابك المعتبر .

المخلص

سعدي يوسف

١٩٩٥/١٠/٢٥

عزيزي سعدي يوسف

أشكرك للفاكس الذي يحمل نبأ اعتزامك نشر نسخة عربية من «حياة متخيلة» .

لقد تأثرت بإخلاصك للكتاب ، وصرفك وقتاً كثيراً ، وطاقةً كبيرةً ، لتقديمه في لغة أخرى .

سأكون سعيداً بتحقيق المشروع ، متمنياً لك حظاً سعيداً معه . أما عن الحق الرسمي في النشر ، فعليك الاتصال بوكيلتي ديبورا روجرز من كولجريدج وهوايت ، لندن ، وإخبارها بتفاصيل النشر وعدد النسخ المطبوعة ، الخ...

وأنا متأكدٌ أنك ستجد من لَدُنها عوناً .

مع كل تمنياتي

ديفيد معلوف

ملحق

ديفيد معلوف:
نحن. جميعاً. منفيون

ولد ديفيد معلوف في بريسبان باستراليا ، العام ١٩٣٤ ، تلقى تعليمه في جامعة كوينزلاند ما بين ١٩٥٩ و ١٩٦٨ . عاش ودرّس في انجلترا وتنقّل في أنحاء أوربا ، ثم عاد إلى استراليا ليدرّس اللغة الانجليزية في جامعة سيدني . وهو الآن متفرغ للكتابة ، يعيش في استراليا ، ويمضي قسماً من السنة في توسكانيا الجنوبية بإيطاليا . حاز جوائز عدّة ، بينها جائزة باسكال ١٩٨٨ ، جائزة الكومونويلث للقصة ١٩٩١ ، جائزة فمينا إترانجيه الفرنسية لأفضل رواية أجنبية . روايته «العالم العظيم» نالت جائزة مايلز فرانكلين وجائزة مهرجان أديلايد للأدب . أما روايته الشهيرة «لنتذكر بابل» فكانت لها جائزة جديدة منحتها مدينة دبلن في العام ١٩٩٦ ، هي «جائزة دبلن ـ انترناشنال إمباك الأدبية» .

* * *

آن فكرتُ بنقل رواية ديفيد معلوف «حياة متخيّلة» إلى اللغة العربية ، لم يخطر ببالي أنني سأجد الروائي الاسترالي ، ذا الأصل اللبناني ، جالساً معي مساءً ، في حديقة منزلي بعمّان ، مع نفر من المهتمين بكتابته .

هل الأمـور بسـيطة الى هذا الحدّ ؟ أو أن الفن بذاته يـمنح الحيـاة هذه البساطة المحببة العميقة ، التي تجعل الحياة ذات مذاق مختلف ؟

كان الأمر أبسط مما ظننت .

بعد أن أتممت نقل الرواية إلى اللغة العربية كتبتُ إليه أبلغه الخبر ، وأستأذنه في نشرها . جاءني الجواب في اليوم التالي : موافقة بالفاكس!

وبعد أن تمَّ الطبع ، كتبنا إليه ، ندعوه إلى زيارتنا في عمّان لمناسبة صدور روايته ، وقد قبل الرجل ممتناً .

لم يكن علينا سوى أن نتدبر تذكرة سفره من لندن إلى عمّان ، إذ كان وفّر علينا تكاليف سفره من سيدني إلى لندن على حسابه .

وها هو ذا في حديقة المنزل ، يتحدث بألفة وخفوت وحيوية ، كأننا أصدقاء حياة كاملة!

ما الذي دفع رجلاً مثل ديفيد معلوف إلى هذه «المغامرة» ؟

أزعمُ أن طبيعته هي التي دفعته .

لكن ، كيف لي أن أقول هذا ، وأنا لم أعرفه ، شخصياً ، إلا الآن وهو في حديقة المنزل ، حديقة الصبّار ، الحديقة الجوراسية ، كما أحبُّ أن أسميها ؟

هنا ، يتعيَّن عليّ القول إنني قرأت طبيعته من نصوصه ، من رواياته ، وقصائده المختارة .

إنه رجلٌ يهتم بما هو قصيّ ، يهتم بالأطراف أكثر من المركز ، ويحاول الإمساك بالبعيد .

ولأمثِّلْ على هذا :

في «حياة متخيَّلة» يعمد ديفيد معلوف إلى تناول المرحلة المعتمدة من حياة أوفيد ، شاعر روما ، المنفيّ إلى خارج حدودها ولغتها ، بل لغتيها ، اللاتينية واليونانية . كان سهلاً عليه أن يتابع أوفيد الشاعر ، في

عاصمة الامبراطورية ، حيث كل تفصيل واضحٌ ، وكل إشكال له إمكان حلّ . أمّا أن يتناول أوفيد في منفاه بين «البرابرة» حيث الصلة بين الشاعر ومحيطه هي بالإيماء والحاسّة ، لا بالنطق والمنطق ، فإن هذا هو الاختيار الصعب ، وأنا أعتقد أن عمل الفنان هو ، بالضبط ، في هذه المنطقة ، أي المنطقة الرمادية التي تستدعي الوقفة المتأملة المتأنية ، الباحثة في العمق .

وفي روايته «لنتذكر بابل» يتناول فتىً ألقته سفينةٌ انجليزية وهو في الثالثة عشرة من عمره ، على شاطىء استراليّ مهجور يؤمّه السكان الأصليون الذين ينقذون هذا الفتى خادمَ السفينة ، فيحيا بينهم حياتهم ، حتى إذا بلغ الثلاثين . عاد إلى مستوطنة للبيض ، مستوطنة تخوم . إنه يعود إلى أصله ، لكن الناس ـ ما عدا أسرة واحدة ـ ينكرونه ويضايقونه ، بل يضايقون حتى الأسرة التي آوته . في ما بعد ، يعود الرجل إلى القبيلة الأولى ، إلى السكان الأصليين ، ويختفي ذكره ، ولربما قتل في إحدى الحملات التأديبية التي كان يشنها البيض المستوطنون على السكان الأصليين .

المفارقة هنا ، هي أن الإنجليز يرفضون انجليزياً .

كان سهلاً على ديفيد معلوف أن يتناول حال الفتى بين السكان الأصليين ، وأن يحتفي بعودةٍ سهلة له ، في أحضان قومه البيض .

لكن هذه ليست مهمة الفنان . السهولة ليست مبتغى المبدع .

وفي رواية «خبز الآتي» القصيرة يتناول الكاتب مجنّداً استرالياً ألقي به مع فرقته في وحل الحرب الأوروبية .

في البداية يرسم ديفيد معلوف جو الحماسة والأناشيد الذي اندلع مع اندلاع الحرب ، جو الموسيقى العسكرية والمتطوعين الشباب . ثم ينتقل من جو الهستيريا هذا إلى جو الخنادق القاتل ، ويتمّ هذا كله عبر سيرة المجنّد ذاته .

الحلفاء انتصروا في الحرب .

لكن الشباب كانوا هم الخاسرين .

استراليا كانت الخاسرة بخسرانها شبابها .

ألم يكن الأسهل على معلوف أن يندفع في وطنيته ، حد الإحتفال بالنصر ؟

لكن هذه ليست مهمة الفنان . الفنان معنيّ بالمصائر التي تشكل النقد ، لا بالمصائر التي تجمّل الواجهة .

* * *

من كتابه « ١٢ شارع ادموند ستون » الذي يكتب فيه عن بيوته وأهله ، والصادر في العام ١٩٨٥ عن دار نشر بنجوين ، أقتطفُ سطوراً يتحدث فيها عن تحدُّره اللبناني ، مشخِّصاً في جدِّه :

« جاء جدي إلى بريسبان (باستراليا) من لبنان ، العام ١٨٨٠ ، مع أن لبنان ، في تلك الأيام طبعاً ، أيام كانت استراليا غير متحدة ، عدداً من ولايات متعادية ، كان غير موجود إلاّ في أذهان وطنيين قليلين . كان لبنان جزءاً من سوريا الكبرى ، التي كانت بدورها إقليماً من أقاليم إمبراطورية الأتراك المريضة . لقد هرب جدي من وطنه في أعقاب فترة من المجازر ، ومثل كل اللبنانيين المسيحيين أدار ظهره عن وطنه ، أسفاً ، وبدأ حياة ثانية في العالم الجديد . كان اختياره استراليا ، اعتباطياً ، ولم يعرف أحدٌ سبب هذا الاختيار . كان من الممكن أن يذهب إلى بوسطن ، أو إلى ساو باولو بالبرازيل . لكن الإختيار حين يقرَّر يغدو ملزماً . الآن صار أبي ، مع بقيتنا ، استراليين » .

أضيف إلى هذا أن جد ديفيد معلوف أخفق في أن يكتسب الجنسية الاسترالية ، فظلّ شخصاً أجنبياً ، سورياً أولاً ، ثم لبنانياً . وحين وقف لبنان التابع لفرنسا ، مع حكومة فيشي ، لا مع فرنسا الحرة ، صار جدُّه عدواً أيضاً ، وأُلقي عليه القبض!

إحدى الصحف ، وهي تنشر خبر زيارة ديفيد معلوف ، أوردت تعبير «الكاتب العربي الاسترالي» ، لكن الرجل يقول : جدي جاء إلى أستراليا في العام ١٨٨٠ ، وأنا لا أعرف اللغة العربية . أنا أشعر بأنني إيرلندي أكثر ، ذلك لأن تربيتي الأولى كانت مع الإيرلنديين وكنيستهم .

أثمت إشكالية انتماء لدى ديفيد معلوف ؟

لا ، ونعم...

أقولُ : لا ، إن كان الأمر يتصل بانتماء قوميّ أو دينيّ ، فالرجل استراليّ مرموق ، ومن أسرة ذات مكانة دينية معروفة .

وأقول : نعم ، إن كان الأمر يتصل بالتطابق المتصالح مع جماعة أو بلد .

الفنان يظل ، بهذه الدرجة أو تلك ، غير منتم .

* * *

رواية «مَلْعبة طفل»(Child's Play) ، التي نقلت إلى العربية ، هنا ، فصليها الأخيرين ، هي من أكثر أعمال معلوف التباساً .

ويعود هذا الإلتباس ، في رأيي ، إلى أنها تخرق قاعدة (الجريمة ـ العقاب) في حيادٍ باردٍ ، مذهلٍ إلى حدٍّ ما .

تتخذ الرواية إيطاليا ، أرضاً لها . وثمت منظمة سرّية تخطط لاغتيال .

تتم عملية الإغتيال (التفاصيل في النصّ المنشور هنا) ، ليسير القاتل الشابّ «تحت البراعم المبكرة» طليقاً .

عرضتُ سؤال (الجريمة ـ العقاب) على ديفيد معلوف . لم أظفر منه بجوابٍ واضح ، لكني أتذكر أنه أشار إلى مسألة عالجتها الرواية ، هي الإنفصام بين الوعي والإحساس .

* * *

القصائد الإثنتا عشرة التي اخترتُها وترجمتُها ، قد تصلح لتكون بانوراما معينة ، لجهد معلوف الشعري ، المتنوع ، المفصح عمّا لا تفصح عنه الرواية أحياناً .

قصيدة «اكتشافات مبكرة» مثلاً ، حيث علاقة الطفل بالجدّ .

وقصيدة «زيارة ثانية إلى غرفة فندق» التي تذكّرُ بأجواء كونستانتين كافافي .

وقصيدة «في رافيّنا» ، حيث «نحن ، جميعاً ، منفيّون» .

سعدي يوسف

قتل في ساحة الكاثدرائية

اقتربت الساعة . فعند عودتي إلى غرفتي هذا المساء كان لديّ إحساسٌ واضحٌ ، حتى قبل أن أتلمس زر الكهرباء ، بأن ترتيب الغرفة قد طرأ عليه طارئ . هناك ، على الطاولة ، السطح الوحيد في الغرفة الذي لم يكن عارياً تماماً ، رزمة ورق بُنّي ثخينة . وقفتُ مسمَّراً إزاءها .

الرزمة لا شكل لها ، وربما ضمّت أي شيء ، كلابتين أو شاحنة طفل قلاّبة أو عدّة حلاقة .

بعد لحظة ، بدون أن أتذكر فكي الخيط وطبقات الورق الثلاث ، وجدتني أمسكُ بيدي ، وبسهولة كأني استخدمت هذه الشيء كل يوم في حياتي ، مسدساً أوتوماتيكياً من نوع «باريتّا ٧٦٥» .

كنت تساءلتُ مع نفسي مراراً كيف سيصلني الأمر بالتنفيذ . وأعتقدُ أنني توقعت دقّةً على الباب ووجهاً ، صوتاً في النهاية ، شخصاً ما قد يضع يده على كتفي ويمنحني بضع كلمات من الطمأنة اللطيفة ـ كنت سأصدّق الكلمات ، فالصوت سيكون كافياً ـ وربما تمنّى لي حتى الحظّ ، أو أطلقَ مزحةً سمجة .

---

* النص المنشور هو ترجمة كاملة للفصلين الأخيرين ، التاسع عشر والعشرين ، من رواية ديفيد معلوف ، مَلْعبة طفل Child's Play ـ طبعة بنجوين استراليا ١٩٨٢ .

لا شيء من هذا البتة . إن ملاك هذه البشارة أسود ، بارد ، مريحٌ تماماً في اليد .

لا حاجة إلى الكلمات . فالشيء هو ذاته الرسالة . وكنت عرفت منذ البداية أنّ عليّ ، حين وصول الاشارة ، ان أحضر في مكان معين ، ووقت معين ، وأنتظر نقلي .

إذاً ، قُضي الأمر . وقد تكفلتْ به الأسابيع الأخيرة . ووضعتُ في الوجهة التي سوف تتخذها حياتي من الآن فصاعداً . لكن ، قبل هذا ، هناك الانعطافة القصيرة إلى ساحة القديس اغوستينو في بلدة ب .

الآن ، وقد حلّت الواقعة ، أحسُ برأسي خفيفاً ، وبأني منهكٌ فجأةً . وضعت السلاح غير مهتم بأن ألفّه من جديد ، أو أن أقوم بأي استعدادات ، وتمددت بطولي على السرير ، وغرقت مباشرةً في نوم عميق .

عتمةٌ تامّة ، كأني مخدَّر .

حين أفقتُ بعد ساعات كان الضوء لايزال ، والساعة تشير إلى الثالثة إلا خمس دقائق . أتمددُ ناظراً إلى السقف ، ولأول مرة منذ كشف ورق التغليفِ البريقَ المشعَّ ، بدأ ذهني يعمل ثانيةً ، وشرع قلبي ، فجأةً ، ينبض شديداً ، ويتسارع .

أذهبُ مسرعاً إلى الطاولة . إنه هناك . نفسه تماماً . أسود ، ثقيل ، خطوطه المرهفة ، ومقبضه المغري ، متناغمة تناغماً جميلاً مع غايته ، حتى لتبدو الغاية ذاتها مثل الطبيعة ، كأن هذا الشيء وُجد منذ اللحظة الأولى للخليقة ، وكأن اليد بأصابعها الأربع ، وإبهامها المرن ، قد نمت لتناسبه ، وأن الشكلين ، اليد والمسدس ، تطوّرا في توازٍ كامل ، الواحد مع الآخر ، ليبلغا أشكالهما المثلى .

يدي ، فقط ، ترتجف رديئةً جداً هذه اللحظة ، فلا تستطيع تناوله . عضضت على شفتي ، وشددت قبضتيّ على حافة الطاولة ، منتظراً دمي

يهدأ . حين استقرّت يدي ، مددتها إليه وتناولتُه . كان لمقبضه وتوازنه وبرودته تأثير مريح فيّ ، مثل الذي قد يأتي من ذلك الصوت المطمئن ، فهو على أي حال ، البديل غير الشخصيّ . أنا أقف وسط الغرفة ، ممسكاً به ، بيسرٍ ، تماماً على مستوى الخصر . لقد استعدت تلك الذات غير الواعية ، شبه الحالمة ، التي نزعت غلاف الرزمة وتركت المسدس يستقر ، بديعاً ، في موضعه . هكذا يجب أن يكون الأمر في ما بعد ، مثل ما هو الآن .

في الوقت نفسه ، ثمت استعدادات يجب أن تتمّ .

أغتسل ، وأغيِّر ملابسي ، ثم أضع ممتلكاتي القليلة في جراب ، أنا أفعل هذا كله ببطء واعتناء شديدين ، لأملأ الوقت ، وأكتشف أنني كنت في الدقائق العشر الأخيرة أتكلم بصوت عالٍ بالرغم من أني عاجز عن استعادة كلمة واحدة مما قلت . عندما تمَّ كل شيء بدقة ، وأزيل آخر أثر لوجودي في الغرفة ، جلست على السرير أنتظر . ليس في الغرفة أثر مني .

لقد نقلتُ نفسي منها .

بعد مضيّ ساعة ، أشرعُ أستيقظُ حيث كنت أنام مستنداً إلى الحائط . أنا منتبه تماماً ، صافي الرأس ، مرتدٍ كامل ملابسي حتى السترة ، والجراب الذي يخفي المسدس المعلّق منذ الآن على كتفي .

الساعة تجاوزت الرابعة .

الآن ، يبدأ الأسوأ . ليس لديّ ما أفعله سوى الانتظار . أنا غير مطلوب لعدة ساعات مقبلة . لكني حاضر هنا ، وحياتي كلها على راحتيّ ، وذهني الذي نفض عنه الإعياء والصدمة الأولى التي نزلت عليّ كضربة مطرقة ، ومعي الآن ، ببساطة ، كما هو الأمر دوماً ، آلةٌ تحيا حياتها الخاصة ، وكل الماضي المتاح في خزين ذاكرتها يمكن استدعاؤه آن الحاجة ، والتقدم نحو مستقبلٍ ليس من شك ، ولو لحظة ، في أنه هناك . الذهن يفرض نفسه . وهو أيضاً

ينبغي المضيّ معه ، عبر الحدث ، والخروج به . إلاّ أني الآن ، أمنح كل شيء ، من أجل حقيقة أو لغز يمكن له أن يشغل نفسه بهما ، ويتركني حراً...

أحسُّ أنني أتكلم بصوت مرتفع ثانيةً ، وثانيةً لم تسجل ذاكرتي الحديث ، وان سجّلته فإني عاجزٌ عن إلتقاطه . قد يعود إلى الظهور في ما بعد ، في ما عزمت عليه ، وأريده الآن في حنين طاغ ـ تلك الحياة الطبيعية القائمة على مبعدة ساعات قليلة من الآن ، في الجانب البعيد من الحدث .

أقول لأبي كأني أمسك بخيوط حديث منقطع : نعم ، أريد أن أتزوج . نعم . أحفاد . أحفادك . أحفادي .

جسدي يعرفهم ، أولئك أبناء الأجيال الآتية ، كأن السنين المقبلة ماثلة ، حية ، أمامي ، وكأنهم بالفعل ، من لحم ودم ، يملأون الصمت بأصواتهم .أود لو ناديتهم ، لكني نسيت أسماءهم . أقولُ : وددت لو كنت هنا ، أتلهفُ هذه اللحظة أن أتحدث إليك ، أن أدع ذهني يسترخي على نبرات صوتك ، أن يضبط ذلك نبرة هذه اللحظات الأخيرة في الغرفة .

وأدرك ، بصدمة صغيرة ، أنني لم أكن أخاطب أبي ، بل كنت أخاطبه هو .

أتراه ، يتحرك الآن ، فعلاً ، من النوم الضحل للشيخ ؟ مستديراً ناحية الضوء الأول للفجر الذي بمقدوري أن أراه يلوّن النافذة ، ماداً قدمه في الأجزاء الأبرد من قاع السرير ، متنشقاً ، رافعاً البطانية فوق كتفه المنحنية ، ناهضاً ببطء نحو السطح ، الليترات القليلة من الدم الخفيف لاتزال تضخّ ، والأحشاء موسوقة تحت البطن المتغضن ، سليماً لايزال بعد ليلة أخرى في الأرض الحرام للنوم ؟ أشعرُ أن هذه قد تكون اللحظة . الآن تماماً في خفة نومة الصباح المبكر ، حين ينظر الذهن نظرتين ، قد نقيم صلةً أخيراً ، وتجري المحادثة التي أتشوّقُ إليها مثل مغفرة . الكلمات هي ما أحتاج

حقاً . أشعرُ أنني وحيدٌ تماماً ، جدُّ معرَّضٍ للأشياء : لقطرات الندى التي لاتزال معلقة بفروع الأشجار في الساحة أسفل المبنى ، الانتفاخات الصغيرة للضوء الأول حيث ستكون البراعم الشهر المقبل ، للأطفال ذوي الصيحات الشاحبة الذين وقفتُ أُراقبهم يلعبون لعبة المطاردة في الساحة ، والذين يغطّون الآن في نوم الطفولة المبكرة ، أو يؤدونِ جولاتهم الخرافية خارج أنفسهم ، أي أحلام الأطفال ، للقطط المنقبة عن الفتات في المداخل الباردة للمنازل ، لغدران المطر الضحلة في مماشي الحصا التي ستنشف في الظهيرة ، والتي يشكل جفافها سيرورة نسيان ، قطرةً قطرةً لمرور الهلال عبرها ، لذرّات السخام المتساقطة على الجذوع والفروع تاركةً الندى يخططها ، لأغطية فوّهات المجاري المستديرة المختومة بشعار البلدية العتيق ـ عين عمياء تحدّق في أحشاء المدينة ، التي تضفي روائحها الصدأ ، للنور الذي يتقدم خارجاً ببطء من عتمة الأشياء ، من الأوراق ، والأحجار ، والغدران ، ومِزَق الورق ، من الأيدي والوجوه ، من أعماق الفضاء ذاته ، والذي لا يمكن أن يقاوَم وهو يتدفق بلا انتهاء ، بلا انتهاء ، مانحاً أي شيء شكلاً ، ولوناً ، وصلابة ، جاعلاً الحقيقة أمراً يدقّ على حواسنا الخمس ليبرأنا حقيقيين . في نقطة الضعف القوي هذه ، نقطة الانفتاح على الحياة المشتركة للأشياء ، يمكن لنا في النهاية أن نقيم علاقة .

أراه ينقلب ثانية . إنه الآن على حافة اليقظة ، لكنه لايزال منزعجاً من نهاية حلم حبسه هناك ، مع أن أصوات الصباح الخفيضة صارت تقدم له ، فعلاً ، الخيوط التي يمكن له أن يمسك بها وينهض ويخرق السطح . امتدت يده الى كأس الماء على الطاولة الليلية حيث الأقراص أيضاً .

لماذا أفكر بذلك الشاب ـ طالب الحلقة الدراسية ، فرانشسكو ، الذي قتل السفير في سانتو دومنغو ؟ لمَ جاء بعد هذا الوقت كله ليشدّني ؟ لقد قلت كل ما عليّ أن أقوله عنه ، أو له . كل شيء .

في هذه اللحظة الغريبة بين النوم واليقظة ، يكاد يلتقط مَرآي ، وربما استطاع أن يمسك بالمشهد المتلاشي في طرف عينه ـ ذلك الشاب ، أهو ؟ في موقف الترام بزيوريخ ـ فيراني هنا وهو يجلس ويدلّي ساقيه على جانب السرير ،-بينما قدماه المزرقّتان لم تُولجا بعدُ في خُفّي الفتى الأسودين . لقد استيقظتُ مبكراً . أنا أنتظر ، منصتاً . الشفتان الرقيقتان تتحركان . الرأس تنوس بأفكارها ، أو قد يكون السبب بسيطاً هو أن ثقلها صار خارج السيطرة . لكن ليس ثمة كلمة . سوف تظهر ابنته بعد لحظة ، تضع قبلة مخلصة على جبينه ، معبرة عن اندهاشها لأنه في هذا اليوم بالذات ـ في ما بعد ، عصراً لديه موعد ـ سبق الساعة وتحرَّك مبكراً . نعم ، ها هي ذي طرقتها على الباب .

تترك قهوته على الصينية وتمضي إلى الغرفة المجاورة . وبينما هو يرتشف القهوة ، ويقضم بسكويت الماء الانجليزي ، يتفحص اللوحة التي بجانب كأس الماء ويقرأ الخربشات التي ظهرت من نومه المنقطع ، الأفكار الليلية التي تقدم نظرة خاطفة ، نادرة ومدهشة ـ فقط نهاية صفحة مرفوعة بعناء ـ لـ «اللا ـ أعمال» ، تلك الظلال ، مجلداً بعد مجلد ، التي أخرجها إلى النور . لا مفتاح هناك . ترى ، ما الذي كان يؤرقه ؟ ماذا ؟ ماذا ؟

أنا أتلاشى من المنظر . الامكان سيمرّ . انه منشغل الآن ، وقد نشط ذهنه فجأةً في واحدة من خربشاته . إنه يضيف شيئاً . يشطب كلمة ، ويضيف اثنتين . أهي فكرة ينبغي أن تكتشف على اللوحة الليلية ، قد أدّت إلى هذه الإلتواءة اليسيرة في فمه ، وهو يأخذ رشفة أخرى من الفنجان ، أم أنها مرارة القهوة حسب ، القهوة التي يشربها بلا سكّر ؟

آه ، إن العالم جدٌ غريب ، جدٌ حزين ، لكنه ممتع!

الآن ، قُضي الأمر . فلقد تركني . لو كانت هناك نقطة ، آنذاك ، حين كان ذهنه لم يستقرّ بعدُ في الحقائق والتفاصيل ، منجرفاً بين إمكانات لا

نهـائيـة ، ولايزال منفـتـحـاً لأي واحـد منهـا ، ليـدخل أو لا يـدخل ـ فـإن تلك النقطة مضت . لقد بدأ يوم علمه .

أزاح القهوة جانباً ، وهي لم تنته بعدُ ، وكتب بسرعة ، مطلقاً صريراً ضئيلاً . عيناه تتألقان . قطعة أخرى من العتمة جيءَ بها إلى عالم البهاء والنور .

ها هي ذي الكلمات القليلة التي تظهر ، وأنا لا أستطيع قراءتها .

الساعة هي السابعة والنصف . الماء لايزال جارياً لحمّامه . أخرجُ مسرعاً بدون أن أنظر إلى الغرفة التي أمضيتُ فيها حوالي ستة أسابيع من حياتي ، أغلق الباب بهدوء ، أهبط السلالم ، أجتاز الممر المؤدي إلى سيدتي العجوز ذات الساعات التي يجب أن تكون تدقُّ الآن في منطلق الصباح ، والطيور التي في أقفاصها ذات الأغطية الداكنة لم تنطلق في أغنيتها بعدُ .

أعبرُ الساحة . إنها خالية إلا من متشرد متكوم كالعادة عند باب بائعة الزهور . أنعطفُ إلى الشارع العريض . أمشي خفيفاً الى الركن ، ثم أركض الأمتار العشرين الأخيرة .

إنني في طريقي .

قُضِي الأمر . وسار كل شيء على غير ما خُطِّط له .

السيارة ، حين وصلت تحت المجاز ذي القناطر حيث أُبلغتُ أن أنتظر ، كانت عربة نقل تقودها فتاةٌ ، فتاةٌ ذات شعرٍ سبطٍ أسود ينعقص إلى الخارج تحت أذنيها . ولم أعرف ، إلا بعد أن صعدتُ وجلست إلى جانبها والتفتتْ مبتسمةً لي ، إنها كارلا . كارلا! كم جعلها تغيير لون الشعر مختلفة... فتحتُ فمي لأتكلم ، لكنني قبل أن أتمكن من فعل ذلك قدَّمتْ لي نفسها .

«أنا إدريانا . أنا سوف أنقلك . أنا أيضاً أغطِّيك . ليس ممنوعاً علينا أن نتحدث ، لكن الأفضل ألاّ نفعل ذلك» .

انطلقت السيارة خارج الزقاق إلى طريق أعرض ، ثم في أحد الشوارع العريضة ، وبعد دقائق كنا في البلدة ، التي يلمس نور الشمس المبكر أبراج كنائسها ، وكانت البلدة تترنح أمام نواظرنا في الفجوات بين جذوع أشجار الصنوبر .

نظرت مرةً إلى الوضع الجانبي لوجهها ، فرفعت رأسها قليلاً وأشارت بوضوحٍ إلى أن ذلك قد لا يكون ممنوعاً تماماً ، لكن من الأفضل تجنّبه .

راقبت البلدة ، التي لم أعرفها حقاً في أسابيعي الخمسة هناك ، تغطس بعيداً في النسيج الخشن ، الوردي والبنّي ، للجذوع ـ قبّتها العظيمة ، أروقتها الشهيرة حيث اللوحات في هذه الساعة لاتزال في العتمة خلف أبواب مغلقة ، نهرها حيث تقوم جسور أنيقة من الحجر . لكن البلدة مضت في النهاية ، وكانت هناك جدران حجرية على كلا الجانبين ، مع لمحة من غياض الزيتون والبساتين في الأعالي ، والوجه الجانبي لكارلا ، غير المألوف تحت الشعر الأسود المستعار .

أقلقني أن أعرف أن الفتاة التي بجانبي دخلت مرةً في منامي ولعبت دوراً هناك لا أستطيع استعادته أبداً ، مع أن جسدي تذكّرَ ، بدفءٍ متصاعدٍ ، نزوتَه .

ترى ، أكانت ذات شعر أسود حينها ؟ بدا لي الآن أنها كانت ذات شعر أسود ، وأنَّ هذا الأمر ، وليس أي شيء قلناه أو فعلناه ، هو ما ضايقني في الأيام التالية ، حين ألتقي عينيها عبر طاولة الطعام ، كأني أتناول جانباً منها في منامي ، جانباً قد لا تكون تشعر به ، أو أنه مخبّأ طويلاً ، كما فعلت هي ، واعية ، بتناول جانبٍ مني ، مرةً ، حين كنت أمام المرآة في الشقة ، ولمستْ خدَّيَّ بمستحضر التجميل ، ووضعت نقاط القرمز الصغيرة عند زوايا عينيّ . وها هي ذي الآن كما تخيّلتُها . أم ترى أنّ حلمي نفسه قد تغيّر بفعل مظهرها الجديد ؟ يبدو أن علاقتنا كانت ،

دائماً ، أقرب مما عرفنا . أسبوعاً بعد أسبوع ، كنا منكبين على المادة نفسها ، يغطي واحدُنا الآخر في السر ، عاملين جنباً الى جنب منفصلين ، لكن طرقنا تتقاطع بلا انتهاء . ألهذا حلمتُ بها ، تماماً كما بدت الآن ؟ لا كارلا الشقراء ، لكن كارلا ادريانا ذات الشعر المستعار الأسود . وتساءلتُ ، في تورُطي ، ترى... ما كانت علاقتها مع ضحيتنا الشهيرة ؟ أي آفاقٍ من حياتها كانت تتابعها في عالم المرايا الواسع لكتاباته ، وكيف كان نصيبها فيه مقارنةً بنصيبي ؟ وثانيةً ، خطر لي أنني بحاجة إلى أن أقرأ أعماله كلها من جديد ، باحثاً عنها هذه المرة ، بديلي الجاهز ، قريني في صورة أخرى .

التفتتْ إليّ ، مرة أو مرتين ، تلحظني . (أكنت أتكلم بصوت مرتفع ؟) وهنا ، كنت أنا من أطاع الأوامر .

قالت ونحن ننطلق من بوّابة المكوس على الطريق السريع : «لدينا أربع ساعات لهذا ، عليك أن تحاول النوم» .

كان يمكن أن أحتجَّ آنذاك بأني قد نمت الكفاية ، وأنني بالفعل في ما بدا لي حالةً من النشوة لا تتفق مع ما أنا مقدمٍ عليه . لكن كلماتها المنطوقة كما فكرتُ في ما بعد ، مثل ما يتكلم المرء مع طفل صغير ، كان لها تأثير أمر المنوِّم المغناطيسي فيّ . ربما كان دفء المقصورة ، والقرب الحامي لحظورها : ربما كان ، ببساطة ، الحركة المنتظمة للعربة ، أو رغبتي أنا في التحرر ، برهة ، من ظرف القلق الملحّ ، إلا أنني شرعت على الفور أفقد الوعي ، وأحسست بها تضع وسادةً تحت رأسي ، وسقطت في فراغٍ أخذ يضاء تدريجياً ، وفي وقت لا أعرف كم طال ، ليكشف خطّاً طويلاً مستوياً من شاطىء عرفتُ أنه كاليفورنيا الجنوبية . كان الوقت عصراً ، والضباب يهبط على المحيط ، لكن الشاطىء عرفتُ أنه كاليفورنيا الجنوية . كان الوقت عصراً ، والضباب يهبط على المحيط ، لكن الشاطىء ، وسيف المحيط

كانا مشمسين . مويجات ناصعة تساقط على بعضها في الرمل الزجاجي ، وستة فرسان كانوا يحثون جيادهم في الموج ، الأضواء تتراقص على خواصر الجياد ، الجياد العالية السوداء إزاء السماء ، بينما الفرسان ينتصبون طوال القامات ، إلا أنهم بلا وجوه . أصواتهم تحثّ الجياد قُدُماً تحت غيوم بيض ، وبطيئاً ، جواداً إثر آخر ، استدارت الجياد ناحية البحر ، مخوِّضة فيه ، وعلى خواصرها ذلك الضوء الغريب ، ثم غابت في الضباب .

الماء الدافىء كان يحيط بي ، لكنني كنت في ضباب . لا من علامة للشاطىء ، ولا مَعْلَم يدلُ عليه فأستهدي نحوه . كان الماء كثيفاً ودافئاً ، وكان لديَّ إحساسٌ مريضٌ بأن الضباب لو انجلى ، وسقط عليه النور ، لصار أحمر .

حاولت جهدي ، لكنه أخذ يكثف ، وثقلت أطرافي . حاولت تحريك كتفيّ ورجليّ ، وأردت أن أصرخ ، وكان الهواء في رئتي ثقيلاً بارداً . حاولت ثانية ، وفي هذه المرة امتلأ حلقي بالصوت . اندلعت صرخةٌ . كانت حبل النجاة الذي ألتقطه وأتشبث به وأصعد .

رمشت عيناي مستيقظاً . لقد توقفنا .

« كنتَ في حلم مزعج » ، هكذا أخبرتني كارلا ادريانا ، كأنها من جديد تشرح شيئاً لطفل صغير جداً . كان في صوتها لمسة قلق يمكن أن تقول : « أنت بحاجة الى المراقبة . بإمكانك إفساد الأمر . فأنت ذو خيال واسع . ولهذا أنا هنا . ليس كل واحد ، كما تعلم ، بحاجة الى تغطية » . لكنها لم تقل ذلك . ماقالته هو : «لديّ بضاعة ينبغي أن أوصلها . وبإمكانك المساعدة إن أردت» .

خرجت من السيارة واستدارت إلى الأبواب . كان القسم الخلفي معبّأ بصناديق تفاح لم أشمَّ رائحته إلا الآن . كانت السيارة متوقفة أمام دكان فاكهة هو في الوقت نفسه مشربٌ ، ومخزن عام ، ونقطة هاتف ومطعم . في

مقدمته ثلاث طاولات أو أربع بدون كراسٍ ، وقد تهرّأ طلاؤها الأبيض . انحنيت في العربة وأخرجت أحد الصناديق .

أخبرتني قائلة : «لا . ليس ذاك . الصندوق الذي تحته . وكن حذراً ، فهو أثقل مما كنت تتوقع . سآخذ أنا الصندوق الآخر» .

حملنا الصندوقين داخل الدكان الفارغ عبر ممر يقع بين المطبخ المهجور لكن النظيف ، بكل سطوحه المعدنية الملمعة ، ومرحاضين قذرين أحدهما بلا باب . ظهرت امرأة من الغرف الخلفية وأخبرتها كارلا بصورة عادية : «بضاعة لبييرو» . أومأت المرأة برأسها . «لا رسالة أخرى . فقط البضاعة وحقيقة أننا جئنا» . المرأة التي كانت عجوزاً أومأت برأسها ثانيةً وسحبت شالاً بنّياً حول كتفيها . كانت تحمل لفةً من خيط الحياكة الرمادي وقد غُرزت إبرُ خشبية ضخمة في الكرة .

«أليس لديكما وقت للقهوة ؟»

قالت لها كارلا : «لا . نحن لسنا متأخرين ، لكن ليس لدينا وقت» .

صنعت المرأة خطّاً بشفتيها : «حظّاً سعيداً إذاً» .

أدخلت كارلا يديها عميقاً في جيبي سترتها المحبوكة من الصوف ، وأتلعت رأسها في حركة ظننتها على الدوام طريقةً مترفعةً حين كانت شقراء فارعة ، لكنها تبدو الآن حركة عصبية ، إنها بحاجة الى مظهرها الأكثر سواداً كي أراها على حقيقتها . قالت وهي تتقدمني في طريق الخروج : «تعال» .

أغلقت الأبواب الخلفية للعربة ، وصعدت ، لننطلق من جديد مسرعين تحت أوراق الربيع الجديدة . قالت لي : «إن أردت قهوة ، فثمت قارورة ، كما إني ابتعت شطائر . فكرتُ أننا سوف نتوقف ونأكل بعد أن نمضي أبعد في الطريق» .

بعد ساعتين ، توقفنا في مشرب خارج الطريق الرئيس ، وأكلنا لفّات لحم خنزير ، وشربنا قليلاً من النبيذ الأبيض ، كما تناولنا قهوة . كانت

اللفّات داخل منديل شاي منشّى بعناية ومكويّ ، وثمت مناديل ورق أيضاً ، كؤوس ورق للنبيذ ، ومزيدٌ منها للقهوة . لكنها نسيت ان تحضر معها السكّر .

قالت : «اللعنة ، اللعنة ، اللعنة! كيف أمكن أن أنسى ؟» لم أجدها ، قطُّ ، منزعجة ، كما رأيتها الآن . فكرت بإلهها المستحثّ وهي منهمكة بممحاتها المطّاط ، تزيل الهفوات ، لكن الهفوة الآن هفوتها . قلت لها وأنا أرتشف القهوة المرّة : «السكر لا يهمني إطلاقاً ، بل إني أفضل القهوة هكذا» .

لكن تفضيلاتي ، أو أكاذيبي المؤدبة ، ليست هي النقطة . فلقد خططتْ أن يكون كل شيء حتى أدنى التفاصيل محكماً ، ونسيانها هو ما أزعجها . الأمر أكثر من إدارة سيئة لشؤون منزلية . لكأن عنصراً جوهرياً من الوضع تنوسي بصورةٍ قاتلة ، مخلفاً فجوة لا يمكن سدُّها . وبدا أنها تقول إن نسيتُ هذا فقد أنسى أي شيء . ما الذي نسيتُه ؟ حاولت أن تذوق ما كان في القهوة ، إلا أنه لم يكن هناك .

حين شغّلت السيارة ، لم تشتغل . إخفاقٌ آخر . أخذتْ تشتم ، وبدت فجأة في مزاج مختلف . لكأنها خرجت من طقس لتدخل في آخر ، مثل ما كان النهار بغيومه الخفيضة ومطره الوشيك . وخطر لي أن عليها أن أرادت استعادة مزاجها السابق ، أن ترفع شعرها الأسود المستعار الملتصق شديداً ، وتترك شعرها الاشقر يخفق حراً . لكن الأمر ، بالطبع ، لم يكن بهذه البساطة . عرفت أن الفكرة هي جزء من كآبتي المتزايدة . المحطة الأخيرة من رحلتنا تجاوزناها ، لم يعد أمامنا من توقف الا في النهاية . المقصورة الصغيرة التي كانت قبل أربع ساعات مكاناً غير مألوف لديّ ، صارت مكاناً أتردد في مغادرته . لقد كانت الأمان . كانت في الجانب المعروف ، في الجانب المأمون من الحدث . ووجبتنا المشتركة ، التي لم

أكن فكرت فيها ونحن نأكل ، كانت شيئاً سوف أسعد لو تذوقتها من جديد : اللفّات المحمصة ، بياض منديل الشاي ذي الطيّات الحادة ، حتى القهوة المرّة . وإذ أستعيد ما مضى ، أراها مهمةً ، لحظات العزلة المشتركة تلك ، في المقصورة ، والطعام ، والشراب ، حتى أني تمنيت لو أبطأت ، لكن الذي حدث هو أنني تقبلتُ ، ببساطة ، هذه الأشياء ، وتركتها تمضي . سألتُ نفسي : «لماذا لا أفهم الأشياء الا حين لا أعود جزءاً منها ؟» ، وقد أصابني هذا ، أيضاً ، بالقنوط . تبدُّل الطقس في المقصورة كان كله مني . وذاك الأمر الهيّن ، نسيان السكر ، ربما أثر في كارلا... أقلّ مما أثر فيّ ، والرغبة في أن تنزع شعرها المستعار وتكون كارلا من جديد ، كانت أيضاً من أجلي ، لا من أجلها . كان الأمر سيعود بنا الى أمان أمس ، أو الى ثلثمائة كيلومتر سابقة . راقبت الأرقام تسقط على لوحة القياس ، وكنت مسمراً إليها ، حتى لم أكد أحسّ بقطرات المطر الأولى ، إلا حين كنا في وسط العاصفة ، لنخرج ثانيةً إلى نور الشمس المندى والأرصفة اللامعة ، ثم لننطلق في مسافة أطول فنبلغ ضواحي البلدة .

هكذا ، لم أر المكان ، البتة ، رؤيةً أتثبت فيها من وصفه . فقد زحفنا ، ببساطة ، متقدمين ، عمياناً ، مع أضوائنا ، بينما مصابيح السيارات والأشجار والأشكال المضببة ذوات الحافات الناعمة تتطاير عبر الزجاج .

قالت أدريانا وهي تحدّق من انحناءة العجلة : «نحن هناك تقريباً . سوف أتوقف لحظةً تحت القناطر ، ونستطيع أن ندخن سجارة . سوف تسمع الساعة تدقّ . تأكدّ من أنك أخذت كل شيء معك» .

كانت تضع أشياءها ، وبضمنها بقايا نزهتنا ، في حقيبة كتف جلدية .

«سأتخلص من السيارة في مكان الوقوف بالشارع المجاور . السيارة التي عليك انتظارها لتنقلك في ما بعد ، هي رينو زرقاء ، ذات لوحة محلية .

ستنتظرك في الركن ، بجانب المصرف تماماً . سوف يأخذك السائق الى طرف البلدة ، ومن هناك تأخذك سيارة أخرى . هل كل ذلك واضح ؟» .

أومأتُ برأسي . أشعلت سجارة وقدّمتها إليّ ، ثم أشعلت سجارة أخرى ، وألقت برأسها الى الخلف على الطريقة القديمة ، وهي تسحب أنفاساً عميقة . جلسنا صامتين . توقعتُ في هذه اللحظات الأخيرة أن أجد قوّة سيطرةٍ على نفسي ، أن أُغلق عينيّ وأعدّ ، مثلاً ، أو أفكر في أحد تلك المشاهد المتخيّلة التي اعتدتُ وأنا طفل أن أُنيم نفسي عليها ، والتي لاأزال قادراً على استعادتها في مناسبات ، أو حتى أن أجد وصفة كلمات ، قصيدة ، قصيدة رونسار «إلى هيلين» التي تعلمتها في المدرسة الثانوية فظلّت بلا سبب في رأسي ، أو صلاة يمكن ترديد مقاطعها مراراً وتكراراً حتى يستنفد الوقت . بدلاً من هذا اجتاحني فزعٌ أعمى ، ومائة سؤال أردت ، بغتةً ، أن أمطر كارلا بها ، وليس من سؤال واحد بينها يتصل ، ولو من بعيد ، بالأمر المقصود ، كما أن كارلا أقل تهيؤاً مني للإجابة عن بعضها . بعد كل أسابيع استعدادي ، كنت غير مستعد ، البتة ، لما سوف يحدث .

قالت : «الآن . جاء الوقت» . نظرت نظرة خاطفة إلى مرآة الرؤية الخلفية وشغّلت المحرك . «اذهب!» . يجب أن أكون فتحت الباب ، ثم تعثرت خارجاً ، مثل ما نمتُ من قبلُ ، لمجرد سلطة صوتها ، ذلك لأني صرت ، فجأة ، وحيداً تحت القناطر ، التي كانت تقطر ماء بعد العاصفة . لقد ذهبتْ ، وأنا كنت أسير ، وفي داخلي إحساسٌ حالمٌ بأن لكل شيء بؤرةً جدّ حادّة ، على امتداد الطرف الغربي للساحة ، عبر المقهى الذي بلا روّاد والمخزن الذي يبيع لوازم ثياب ووسائد .

كان الضوء باهراً ، كما يحدث بعد المطر ، والساحة ملأى بسُجُف من السماء ، والحمائم تنهل منها ، أو تطرطش زجاجاً هشيماً إلى أعلى .

ناقوسٌ كان يدقّ . الناس واقفون تحت مظلات مفتوحة . قطرات مطر

ساخنة صغيرة تنزل منحرفة في ضوء الشمس ، والواجهة المقابلة التي بدت قريبة ، جدّ قريبة بالنسبة إلى الساحة التي تخيلتها ، كانت مضاءة وذهبية ، وكل تفاصيلها قاسية الحافّات ، ودقيقة ، كأنها نحتت للتوّ .

كنت كالعائد إلى مكان من طفولته ، ليجده أليفاً ، لكنه المكان الخطأ . الأبعاد كلها كانت خطأ . ولم أتكل على ارتفاع رنين الناقوس أو على قصر الوقت الذي سأستغرقه في الوصول إلى المنصّة ، أو ، مع قعقعة أبواب الكاتدرائية وافتتاحها ، على الظهور المفاجىء خلفي لشمّاسٍ يرتدي قبعة مائلة وسروالاً ، ليقف لحظة قبل العتمة المفتوحة حيث كانت الأبواب ، مع صولجانه الذي يمسكه بطول ذراعه ، وليدق ثلاث دقّات قبل بدء الاحتفال . وقف ، ثم خفض الصولجان بصورة طقسية مبالغٍ فيها ، وتقدّم سائراً .

خلف الشماس كان الكاهن ومساعدوه يرتدون الأبيض . خلفهم التابوت محمولاً على أكتاف ستة حجّاب ذوي لباس موحد . وأخيراً ، الشيخ ، وهو يبدو أكثر هشاشة مما توقعت ، شخصاً نحيلاً منحنياً ذا جمجمة كجمجمة الطفل ، شفّافةً تقريباً ، حتى لتكاد ترى العروق الزرق فيها ، تنبض ناعمةً . كان يرتدي سترة صباحية وسروالاً مخططاً ويعتمر قبعة عالية لامعة . إلى جانبه ابنته ، متشحة بالسواد ، وقد إلتفتت لحظة ، جانباً ، وكانت منهمكة في فتح مظلتها السوداء . حين خطوتُ إلى أمام نظرت الى أعلى . امرأة غير اعتيادية ، هكذا فكرتُ حين التقت عيوننا . ثم نظرت الى أسفل ، وانفغر فمها في ما يجب أن يكون صرخة . لقد رأت المسدس .

توقّف الزمن ثواني كاملةً ونحن واقفان هناك ، يحدّق واحدنا بالآخر . كانت تبدو كريهةً جداً . وتولد لديّ انطباعُ مباغت مريض عن الوطأة بأسرها ــ اللحم ، العظم ، وروح من القوة الأنثوية والحماية ـ الوطأة التي سكنت الشخص الأسود وكانت توشك أن تحول بيني وبين ما يجب أن أفعله ، وعن السنوات التسع والأربعين التي كانت تستجمع خلالها ، قواها ،

لهذا الأمر . ارتفعت كتفاها ، وبرزت عضلة ثخينة في عنقها . استعدّت للهجوم . في يوم ما ، قبل أن أولد بسنوات ، ربما قدّمتْ هذه اللحظة نفسها ، باعتبارها اللحظة التي قامت عليها حياتها كلها . لقد رأت ذلك الآن ، فاندفعت نحوي ، مخلوقاً من منظومة وجود أخرى ، تامّ التسلّح ، متألقاً ، وسمّرتني بنظرة قاسية ، كأنها تقول ، اسمعْ ، ظننتَ هذه اللحظة لحظتك ، وأنك ستتحكم فيها ، لكن انظرْ ، إنها لحظتي . كانت في حريرها الأسود ، تجسيداً لكل شيء حاولتُ استثناءه من الحدث ، وكنت عارفاً وطال الوقت أنه لا يمكن استثناؤه . كيف أمكن ذلك ؟ لقد عرفته ، والآن ، حسبُ ، رأيت ما عرفته .

رصاصةٌ أصابتها في الكتف . بدت غير شاعرة بها . مع الرصاصة الثانية التي اخترقتها ، ارتدّت ، ترنحت ، وقفت ثابتةً ، ثم شرعت ، في بطء شديد ، تهوي على ركبتيها ، لكن ببطء هائل ، ونظرة من الاندهاش والخيبة اللانهائيين ، كأنها تسحب إلى أسفل بقوة طبيعية حاولت بكل كينونتها أن تقاومها ، لكن تلك القوة كانت أشدّ منها .

إنها كائنٌ بشريٌ فقط . لقد هجرتها القوى الملائكية . لاتزال تمسك بالمظلة ، مثل باراشوت لن ينقذها .

وقفتُ فوقها ومسدس الباريتا يرتعش في يدي . خبطت احدى يديها حجراً من أحجار الرصف ملطخاً بالدم ، وكانت الأصوات المنطلقة من فمها كأنها في لغة أخرى . انحنيت قليلاً إلى الأمام ، محاولاً التقاط الأصوات . أرعدتْ «بغرر ، تغرر ، دغر ، مغررا» .

بعضي كان مفتوناً بمحاولة الترجمة ، وفكرت أنني لو أغمضت عينيّ وانصت في الظلام ، فقد تؤدي الكلمات مغزى ، وتكشف عن معنى لي . لكنّ بعضاً آخر مني كان استدار بالفعل . لايزال هناك ، الشيخ .

كان قد نصب قامته والتفت ناحية صرخة الانذار الأولى التي ندّت عن

المرأة ، وقف ثابتاً الآن ، ناظراً مباشرةً إليّ . الطلقتان الثالثة والرابعة هما اللتان أصابتاه ، واحدة في الصدر ، والأخرى في الرقبة ، فسقط فوراً . الرصاصات الأخرى انطلقت عشوائياً ، بدون إرادتي اطلاقاً ، وسمعتها تعيد أصداءها خلفي وأنا أندفع في الساحة المكشوفة نحو الصورة الرابعة من صوري الفوتوغرافية السبع ، وكلها صقيلة وجديدة في الشمس ، ورأيت في طريقي ، بعد أن خفت الضجة ورائي ، كارلا ، شقراء من جديد ، مع سترة على ذراعها ، قد يكون السلاح الثاني تحتها . أول ما فكرت به هو أنها توشك ان تطلق النار عليّ . ظلّ الناقوس يرنّ ، وحين انعطفت مبتعداً حلّت صورة المرأة ذات المظلة محلها . كانت راكعةً في طريقي تماماً ، يداها مرفوعتان ، وفمها مفتوح ، والصوت الرهيب المنطلق منه ، صيحة الألم الفظيعة لحيوان جريح ، كان صوتي يصرخ ويصرخ بكلمات أفهمها أنا ، فقط ، جيداً ، «لا! لا! لا!» مثل رنين ناقوس .

أما اللحظة التي استعددت لها جيداً ، حين نقف وجهاً لوجه في تفاهم كامل على ما سيحدث ، فلست اتذكرها على الاطلاق .

كانت سيارة الرينو الزرقاء هناك في الركن ، وقد بلغتها في ثوان . السائق ، وهو شاب نحيل ملتحٍ ، كان منحنياً على المقعد الأمامي ، ويده على الباب المفتوح . هسهس : «بحق الله ، أُدخلْ . ماذا تنتظر ؟» .

بعد ثوان طويلة ، جرى فيها كل شيء في عُشر ما تقتضي طبيعته ، وبدت كل حركة معزولة ، متجمدة ، شرع الزمن يتسارع ثانية ، ويتسارع قلبي معه .

جلست متهاوياً على السلاح ، وأنا اختضّ بعنف حتى أسناني أخذت تقضقض . بعضي كان لايزال تائهاً هناك في الساحة الرهيبة ، مسمَّراً إزاء الهيأة الراكعة للمرأة ، عاجزاً عن الحركة . وإنها لمجردُ ذاتٍ فيزيقية تلك التي جلست ، تنزّ عَرَقاً ، في الرينو الموعودة ، المنطلقة بأقصى سرعتها نحو

إشـارة المـرور ، والتي تـكاد تكون في الجـانب الآمن مـن هذا كله . وهـكذا يغدو الواقع حين نرتطم به غير واقعيّ .

أطلق السـائق أنيناً وهو ينحرف بعنف نحو جانب الطريق : «أُوه . لا . لا يمكن . يسوع! يســ ... وع!» .

أمامنا ، مباشرةً ، كان حاجز شرطة .

فتح الباب ، واندفع خارجاً ، تاركاً المحرك يدور ، وماسحتي الزجاج تتـحـركـان مـجنونتـين جيئـةً وذهاباً ، ومـن خلل أمـواج المطر رأيت أضـواء تتخاطف ، ورجالاً ذوي بذلات نظامية يطبقون علينا . لم تكن ثمت طلقات . أخيراً انفتح بابي ، وعندما هبطت متعثراً على الرصيف ، فكرتُ ، نعم ، لقد رأيت هذا كله من قـبـل ، في الصـحف . بـالأسـود والأبيض . بـعـداً ذا بـلّورة واحدة ، لما هو ، بالفعل ، تاريخ .

كنت عارياً ، وفي العراء . كلُ مَعْلم عدا الساحة كان غير مألوف لديّ ، كنت غريباً هنا ، وقد فقدت كل إحساس بالاتجاه .

قذفتُ نفسي في زقاق ، وأنا أسمع الطلقات تخفت ورائي ، وأحسـست بما يمكن أن يكون ثقل الجراب ، ينزاح عني . فكرتُ ، حسناً . كلما خفّتْ هانت . الآن ليس لديّ شيء ، استدرت إلى ناحية ، ثم إلى أخرى ، ووجدت نفسي في الساحة ثانيةً ـ هكذا ـ رأيتها للمرة الثانية ـ أُواجه القصر القوطي ذا القرميد المصمت . كان نعش التشييع المخرَّب لايزال هناك ، عربة سوداء كـبـيرة تـلتمع في المطر ، وزجاج نـوافذها مزين بالزهور ، وأمـامـهـا جوادان أدهمان مكسـوّان ومزركـشـان . رفعـا رأسـيـهـمـا حين مررت ولمحت بريق بؤبؤين أبيضين . أحدهما رفع قائمته الأمامية ورفس الرصيف بحافره مطلقاً صوتاً . مضيت إلى الشـارع الذي ينعطف بعـيـداً شـرقي القـصر الذي فـتـنتني صوره الفوتـوغـرافية ، والذي كنت غـيـر قادر على الرؤية حـول انحناءته . لا أحد أراه ، ولا صوت مطاردة .

الشـارع ذو الأفاريز المعلقة ظل ينحني ، مع أبنية ثقيلة على جانبيه ، كلها مغلق الستـائر بإحكام ، شـرعت ألهث ، وخطر لي أن وقع خطاي بين الحيطان العالية قد يكون مجلبةً لانتباه أقل لو سرتُ الهوينا .

هكذا أمشي .

هنا ، في الساحة الكبيرة المكشوفة ، بلغت موضعاً لا مطر فيه ، لا أثر للمطر فيه ، أعبـرُ السـاحة ، المهجورة ، والتي بدت هائلة مع المشية التي ارغمت نفسي على اتخاذها ، أنعطفُ في طريق جانبي ضيق ، وأدهش قليلاً اذ أكتشفت أنني ، في طرف البلدة ، فعلاً . هناك سقائف مهجورة تنتصب بين النباتات الشوكية التي تبلغ الخصر ارتفاعاً ، وأسيجة متداعية تسلّق عليها نبتٌ هو « لحية الشيخ » ، وقطع من أرض صخرية تناثرت عليها الأسمال والورق والقناني البلاستيكية وإطارات السيارات التالفة وأحذية التنس وعلب الطعام الصدئة ، قمامة الوجود ، وعلى مبعدة ياردة واحدة من سينما مهجورة حيث الصبيان يفككون سيارة ، وضعت كل أجزائها ، بعناية ، في التراب ، كانت سيارة رينو زرقاء .

بعد مسافة يسيرة ، أجد بساتين على جانبي الطريق كليهما ، أشجار تفاح تتألق تحت شمس الأصيل ، مثقلة بالثمار . أمدّ يدي وأقطف واحدة . أعضُ فيها آكلُ . وفي التأكد المعجز من أنني آمنُ أخيراً ، أسيرُ تحت البراعم المبكرة .

قصائد

مرض طفولة

ذوت أصابعه ، وارتخت قبضتُها
حتى انسربت الكتب من بينها ،
ظلالٌ ، وأصوات غريبة انسربت من خلل الأماكن المفتوحة في ذهنه .
الجدران تحرّكت مثل انهيال ،
ووجوهٌ كانت قريبةً مرةً ، تناءت بغتةً
مثل مَشاهد لم تسافر إليها عيناه البتّة ؛
ضوء الشمس البارد اندلع أنّى سقط عبر النافذة .

المرآةُ ، التي أمضى في عينها الدقيقة حياتَهُ بين جدران أربعة ،
حبستْ صقالها ؛ دخلتْ وتمكّنتْ
وهي تلصٌّ ماهرةٌ ماكرةٌ
لتؤثث في أعماقها غرفةً أكثر حقيقيةً من غرفته ،

الرفوف حيث انتصب مؤلفون صفوفاً ،
الطاولة
الكرسيّ
وظله يلوِّح بدون إرادته .

لكن ، أخيراً ، آن أعادته خارطةُ الحمّى إلى الصحة الواضحة ،
والأشياء كلها في نظامها الأليف ،
الجدران واقفة
والوجوه الأليفة قريبة ،
تمطّى وابتسم ، وطلب طعاماً ،
وكان متلهفاً للعودة إلى درّاجته ـ
ناسياً الآن ،
حين اندلع الضوء على جفنيه ،
كيف أزهرت أعماق المرآة بابتسامته الفارغة .

حديقة داخلية

لآلِ بِلّيك حديقةٌ داخلية ، قدمٌ مكعب من التراب
في حوضٍ صبيغ ،
حيث يترعرع بهيجاً الصبّارُ (القزم)
ونبتاتُ الشمع

ومخاليق حديقة من الخزف الصيني :
أرنب ، وحلزون ، وضفدع .

آلُ بليك انجليز
يؤمنون بأن لمسة خضرة تمنح الذهنَ
إشارة الإنعتاق الضرورية تلك ،
إنها سوف تفتح منفسَحاتٍ بين الجدران الأربعة
للغابة ، والحقل ، والسماء .

في الآن ذاته ، عبر زجاج النافذة
كان موسمٌ عنيفٌ يدقدق الأرض
وغاباتٌ مطريّةٌ تجفل
وسياط ماء حادّة تجلد الوديان
والدغل يدخل عبر الأسيجة
وينثّر حجار الرَّصف .

لكن ، ليس من عاصفة تهزّ هذا الصبّار
الذي يتعهده آل بليك مثل حيوان أليف ،
ومخاليق الخزف الصيني لا تزعج أحداً
ونبتات الشمع البهيجة تُطلع ، كل عام ،
برعماً قرمزياً صقيلاً

الأمرُ ، أن آل بليك ، اصطلحوا ، في حوض تراب
مع قارة ؛
غير آبهين للرعد ، ولا للّهب
ولا حتى للضفدع الضخم العجوز وهو يطلق أبواقه
في مجاريهم
حين تقعقع قطرات المطر الأولى .

سائبٌ هُنا

غيرَ مقروء ، يرقد الكتاب الذي طلبتَه
مفتوحاً أسفل النافذة ،
صفحاته تنطوي في نور الشمس
كما تنطوي الموجة على عتمتها ،
وأصابعك البنّية ، وأنت مهدهدٌ بالنعاس ،
تلقائياً ، تنطوي :

ومستيقظاً إلى جانبك
أرقبُ ، سائباً هنا ،
أصابعَ ، صفحاتٍ ، أمواجاً .
واستثارةً لغيابات أليفة :
الحلم

القصيدة غير المقروءة
وقوس البحر المكتمل .

رسالة صعبة

وماذا عليّ أن أكتب إليك
عبر محيطات خمسة ،
أنت الذي كنتَ ، مرةً ، أقربَ إليّ
من نفسي ذاته ؟
إن كنت مقيماً على مبعدةٍ من العداء المحض
فإنني قادرٌ بكلمات عابرة وتهذيبٍ باردٍ
أن أجسرَ الفجوةَ ،
لكني أي كلمات يمكن لها أن تكتب هذه المحيطات
التي تسيل الآن كالزمن بيننا ؟
ماذا سأقول لك
أنت يا من لست عدوّي ولا صديقي ،
بينما انطبعت ، مرةً ، بين شفاهنا
ترانيم مديحٍ بلا كلمات ،
آنَ وقّعتُ ، مرةً ، خربشاتي في محيط دمك ؟

زيارة ثانية إلى غرفة فندق

إنها ثمتَ
مع أني ظننتُ بافتراض العاشق
أن الشارع أيضاً يجب أن يكون منهدّاً ،
وتلك الجدران العارية حيث فعلْنا الحبَّ
يجب أن تكون معلّقةً ، مثل أيماننا المنقوضة
فوق الساحة .

لكن ، مثل ما بين الجدران الأربعة لحلمٍ مهجورٍ ،
لايزال الحقيقيَ ماثلاً ،
الأثاث الثقيل :
الطاولة ، والكراسي ،
والسرير الحديد ، الذي ظننّاه طارئاً تماماً
على المسألة .

لقد نجت هذه الأشياء
وإذ أجلس بينها الآن
فإن ضحكةً ناشفةً تخضّني :
أنا أسمع شبحين ينطقان بوعود أبديةٍ ،
في غرفة استأجرناها لساعة واحدة .

الطَّرَف القصيّ

هنا ، عند الطَرف القصيّ لقارّةٍ
يُنشب القصبُ اليابسُ أظافره
والنوارس الرمادية تستدير عن البحر
وتتجمع هنا ،
لتبني ، مجازفةً ، أعشاشها .

وهنا أيضاً ، على طرف العتمة
حيث كل منبسَطٍ يغرق في الهاوية ،
البارُ المضاءُ
هو من ضوء
هو القُنّةُ القصوى
والمخرجُ السقطةُ القصوى

مع أن الكلمات تنزلق
واليدين تعجزان عن الإمساك ،
فهنا ، أيضاً ، قد تتفتح
مجازفةً ،

مثل القصب

وعش النورس الرمادي ،

لحظةُ المَلمس ،

القصيدةُ .

ثلج

ارتعاشة ، كما عند الماشية التي تُتلع رؤوسَها

في العتمة ، لرائحة الماء ،

والخيولُ تتنشق الرعدَ في العشب .

لن يهدأوا اليوم

ولن يثبتوا عند طاولات الصنوبر

ولن تستجيب عيونهم

فتعكس الأرقام والحقائق الباردة

من السبّورة .

إنهم مفعمون نوراً ،

وفي مربَّع نافذة

حيث تتلوّى الأشجار

تتوهج السماء برونزاً مخضراً

وتترنح بيضاء كالموج متكسراً .

حواسُّهم تلتقطه من بعيد ،
وثمت شيء يتجه إليهم ،
ويلتصق بهم ،
حتى أقلام الرصاص ، والقطط ، والطباشير ،
أو البقع المالحة في الثياب ،
ثمت اهتياجٌ تسقط بلّوراتُه في عروقهم
وفضاءاتُ جماجمهم تتمايل نحوهم
(عيون حيوانات ، المناخر تتّقد)
مثل ريش البوم ، يبارك نديفُ السماء الملائكي
حجارةَ الرّصف ، والسطوحَ السودَ المائلة ،
الملاعبَ الفارغة ، والبحيرة .

على أيديهم طعمُ النجوم
ولونُ الأبعاد
وكلُّ ما هو بعيدٌ عن الجسد .

ضوءٌ ساقطٌ يندلعُ نحو الأعالي .
وألَقُه يَصِرُّ تحت أحذيتنا .

ذوَبان الثلج

الفصلُ منتصف الليل :

الزجاج يتهشم برداً .

ومن نوافذ المخازن المضاءة ، فتيات نصف نائمات

خدراتٌ من الصقيع

يخرجن

ونحن ندفىء أيديهنّ بين أيدينا ،

نقبّلهن ليستيقظن ،

والكواكب تذوب على خدودهنّ .

اللمسة الأولى

الدموع الأولى .

وخلف عيونهنّ الزرق

تهشّمُ العتمةُ لوحَ جليدها .

نمشي في غابة

من النور ، وعبّاد الشمس .

ت أحد بابوات بورجيا

المنظر من البرج : إحدي مسرّاتي أن أجعل السائس الأول يطلق الجياد ثم أرقب (من مبعدة الآن ، في السبعين) ذلك البحر من الظهور ، المهاري متّقدة بالشهوة ، والأفراس تندفع مجنونةً طليقة ، مزبدة الخواصر . دعوتُ لوكريشيا مرةً لتشاركني المشهد ، وراقبت عرَقها يتساقط ، وكل قطرة منه تضاهي لؤلؤ ليبيا . ومرةً في حفل بروما ، غلّقتُ الأبوابَ الذهبَ كلَّها ، وجعلت رجال كنيسة بليدينَ يمطرون بالكستناء المشوية الساخنة أفراد حاشيتي الخمسين الذين استأجرتُهم ، وهم يركضون عراةً بين الكؤوس المراقة ، أو يقرفصون على أربعٍ ، عراةً تحت الموائد ، أردية قرمز ، وفراء ـ ضوعُ غاباتٍ لم أره ، في افريقيا ، التي يقال إن خارطة ظلامها على جسدي . وهذا الصيف ، تشحنُ هبّاتٌ من بلاد البربر الهواء . أنا أختنقُ وأتعرّقُ برغبة غريبة ، أعمق كثيراً مما أحسست من قبل . أنا أقف على شرفة عالية ، وأصابعي منعقدة في مباركة شيطانية لجيادٍ تندفع في الليل الساخن . هذا اليوم انزلق مَذْخري الديني الصغير من عنقي وتدحرج بحمله الثمين (جسد المسيح ودمه) ليسقط في شقٍّ بين حجرين تضيئهما الشمس . في ما بعد ، أطعموني مسحوقاً نادراً من الأحجار الكريمة ـ لؤلؤ ، ياقوت ، جمشت ـ خشناً على لساني ، وله طعم التراب . حاولت أن أصلّي . قذارةٌ من الذهب أزبدتْ على شفتيّ . أحد الخدم مسحها . الشرفة الآن تذوب ، وأنا أتلاطم على أمواج من الحرارة الحيوانية ، حوافرُ سودٌ ، وذيولٌ كالسياط ، وبول

الأفراس على وجهي ، عَرَقُ الملاريا . أتهاوى ، وقد غدوت ضخماً أسود مثل إفريقيا ، على الأرضية المرمر ، وأنفاسي تمتص الشموع . وفوق رأسي أفراسٌ هائلة ومهارى نارية تحتفل بشهوتها .

أنا أطير ، مثل قشة تحت تلك الرقصة .

شاعرٌ بين الآخرين

«الشاعر ، في نهاية الأمر ، هو كائنٌ بشريٌّ ، تماماً مثل أي كائن بشريٍ آخر ، ومقدَّرٌ له أن ينتهي بالطريقة الأكثر عاديّةً ، الطريقة الأكثر أنموذجيّةً لمن هم في عمره وزمنه ، وأن يلقي القدَرَ الذي ينتظر سواه» .

ناديجدا ماندلستام

النفس مثل دخان
يَصَّاعدُ ، منجرفاً في الفجر .
لا قبضة تمسك به ،
منديلٌ معقود .

إنها تتلاشى في سماوات الشتاء الرمادية .
وتمضي إلى حيث تمضي الطيور
آن الماء يتكسَّر في الغدران
ولا نافذة .

وجوهٌ رمادٌ
بدلاتٌ من قماش السَيرْج الرماد
في الساحة المتجمدة .
مناداة بلا اسماء .
الساعة تعلن منتصف النهار دقيقاً عبر هذه الأشباح
هؤلاء الذين لم يعودوا مواطنين
هذه الظلال المتكأكئة وراء سياج شتاء
لن تستطيع اجتيازه نحو الحقول المكتنزة ،
نحو عتبات لا تعبرها إلا في الأحلام ، في الضوء
الأول المقتنَص من بطرسبورغ
لقد فقدوا الحظوة .

وإنه لانحدارٌ طويلٌ . والدولة في كل مكان . هي في أحشاء المرء وجعٌ ، وفي سنبلة القمح شعار . وفي الجمجمة الثخينة تغاريد كالرصاص . الطريق إلى الحرية دخان خفيف يتعالى ، سبيل ينفتح من الأيدي . وهو يمضي خفيّاً الى القرى ذوات الشارعِ الوحل حيث الخنانيص تشخر أسفل سياج . امض إلى هناك . طِرْ . والنور في رسغك المؤرَّج بالصنوبر ، يمكن أن يدخل في الهواء أعلى من الأسوار وخارجاً . حتى العشب بريء ، يظل ينمو خلف جدار . العشب محظوظ في مثل هذا القرن . الدولة تهتم بالناس حسب .

هذا المرء كان شاعراً . يتمسك بكائنيّة الأشياء . ورقة شوفان ، لحظةً ترتفع مثل دوّامةٍ من الحقل الحصيد على جناح قبّرة لتدخل تمام زرقة

النهار ، قطرة ماءٍ مفعمة بنور القفقاس .

وجه امرأة مطبق على حزنه .

إنه يتقاسم الآن ، عاديّة ما هو إنسانيّ : الرماديّ ، الرماديّ مثل القمامة ببذورها الكثيرة ، كل بذرة ، وحدها ، وتغنّي .

التراب في فمه أخيراً . ثقيلٌ مثل الصمت حيث بذرة العشب التي لا تُقتَل ، تمدُّ جذرها تحت لسانه .

اكتشافات مبكرة

وجدتُه في الحديقة . كان يمشي بين نبتات الطماطم المرفوعة ، تفّاح الجنة . إنه في الثمانين ، ومُنحنٍ . أبيض الشعر ، في بدلة سَيْرج منتفخة ذات شيّال . شاربه ، الذي كان يوماً ما ، في قسوة المحارب ، المستعد للعراك ببلدة زحلة الصغيرة ، حيث الشرف يفرِّق البيوت ، ويُخلي الساحات ، شاربه هذا ، متهدلٌ ، وخفيفٌ من كثرة اللمس . لقد مضى جدّ بعيد عن قرنه ليعتني بأكثر من هذه : *Webbs Wonders* ، والسَّلَطة غير المضرّة ، تجتاحهما الطيور . إنه يؤدي بينها رقصة الدرويش الصامتة ، والطيور تفرُّ زاعقةً . موضعه ، تحتله في العشية عصا تخفق وتضرب عنيفةً الهواء . صدريّة مهترئة محشوّة بالقش . إنها تصفع وتدور . أنا أخشاها . هذه الأشياء لا تعرف ما ستفعله . مقصفٌ أعمى لعواصف تهزّ الستائر الخشب ، وتئز على الأرصفة المشمسة . جَدّي ألطفُ . لكنه حين يرفعنا ، يخزُنا شعره الأبيض ، ونشمُّ رائحة أجنبية . أهي رائحة الثوم أم الشيخوخة ؟

إنها قارات لم أعرفها ، وإن زمنها لآت . آنذاك يتمتم الدعوات . أرقبه يؤدي طقوسه العجيبة . البلطة الصغيرة في يده وهو يقطع رقاب الدجاج في عتمة المبنى الخشبي ، شيخاً يتصارع مع أجنحة ، أو يهزّ غربالاً ، يَسَّاقط منه شلاّل الحَبِّ اللامع ، متكوّماً ، بينما التبن يتطاير ويلتمع ، متساقطاً للأفواه الأخرى .

إنه يجيئ ويمضي مع ضوء النهار . إنه سيد الخضروات . عدوّ الطيور والراهبات ، وبناته الخاملات... الغربان السود . ابنه العاقّ يطعم الكلاب أرانب حيّةً في قفص خلف تعريشة العنب . البنات أيضاً يُفسُدن في أرض أجنبية . يختلطن بالكرمليين ، ويتقلبن في الليالي الحارّة على أسرَّتهنّ العالية في معمانٍ من الدانتيلا ، عذراوات متبرجات . إنهن يَسْكُنَّ في أرض أخرى . وكما أفعل ، أنا حفيده الأصغر ، وفي الرابعة من عمري ، أفتش بين نبتات الفاصولياء المغبرة عن إخوةٍ تحت اللهانة ذات الأسابيع التسعة . إنه يجدني هناك فأحفر خلف ظله تحت صفوف الزرع . ها هو ذا بستانه ، واد في لبنان ؛ بمقدورك أن تشمَّ رائحة شجر الأرز في أنفاسه ، ودم المذابح ، والهلال يلمع من الوهاد ليخترم نصف أسرةٍ . إنه يفرك المريمية المتغرِّية بين الإبهام والسبّابة الملطخة ، ويستاف شميم التلال المكسوة بالثلج : النحل ينقل الذهب وهو يغتذي نور الشمس بين الصخور ، نواقيس الكنائس تخوِّض في غدرانٍ من الصمت . والحقُّ أنه لم يهاجر تماماً . الجو في رأسه يظل مقلوباً ، كأن يسقط الثلج من عينيه على خضرة كوينزلاند ، بينما لايزال يناير في أواسط الشتاء . هذه الشموس المنتفخة معجزات . والطماطم في بيوت الزجاج غير المرئية تعرق في حرارة انتباهه ، مثل جزر حدث أن مرَّ بها كولومبس . وأنا ، وقد وجدني مقعياً ، لا أكاد أطاول شجيرة الباذنجان ،

أدهش ليديه السمراوين وهو يفرق السيقان . أين أنا ؟ ها هي ذي بريسبان ، حوشنا الخلفيّ . نتركه يقيم بستانه خلف سياج شبكيّ . المنزل منزلنا وبيتنا . إنه يجيء غريباً ، مع شارب المحارب ، غيرَ انجليزي . في هذه الأيام ، أجده في كل منعطف . في صباح مبكر بـ «شيوس» ، أرفع الستار ، فيشعّ بستانه المكتشف من جديد : خيار ، سبانخ ، عريشة أعناب ، الشيخ يراني أراقبه ، يبتسم وينحني في ما بعد ، على درج الرخام ، وفي صحيفة أمس (كلمات من لغة لا أستطيع قراءتها) كانت قرابينه : رأسين من لهانة الربيع الجديدة . أفتش تحت الأوراق (مزحة قديمة) ولا شيء هناك . لا شيء سوى رشة تربة سوداء على العناوين الرئيسة لحرب أخرى ، انتشرت من الجذور . تلك الليلة ، أكلتُ اللهانة ، مغليةً ، مع الزيت والخلّ .

في رافينّا

نحن ، جميعاً ، منفيّون من مكان
أو آخر ،
حتى أولئك الذين لم يغادروا وطنهم ، البتة .
صنوبرات المظلة تحشد قُبيل الغسق
عتمةً ليست حتى المياه عميقةً حدَّ احتضانها .
في الفجر تشتعل مليون إبرة ،
وعلى نهاياتها ترقص ملائكة النور ،
أضألُ رُقاقة حجر تتلألأ ، وتكشف ألوانها


BIBLIOTHECA ALEXANDRINA

للفردوس الخصم ؛ الشاعر ذو الوجه الطويل ، والسياسي الفاشل الذي طاردته أشباح الحروب القبلية ، السادة القتلة ، والمرتزقة يقتفون خُطاه . أحلام مدينة مفقودة لايزال وحلها أسود على حذائه .

قادماً إلى هنا ، في ١٩٥٩ ، التقيتُ في الطريق ، على مبعدة ميلين من فورلي ، أحد الأوروبيين الفطنين الجدد ـ بلجيكيا من فرفييه ـ كان متقداً ذلك الصيف المجيد بإيمان متّقد ، بأوروبا ممكنٍ انقاذها ، قارةً واحدةً ، شعباً واحداً لا يتجزأ . سيقان القمح تئنّ والريح فيها ، أيدٍ سودٌ تقعقع في القشور .

نمنا في بيت مزرعة مقصوف . طيلة الليل كانت الشاحنات تدمدم على الطريق السريع ، قطعاناً قوطية . كانت السماء ملأى بالنواح بين الصخور كأن امبراطورية تنهار في الريح . سرنا فجراً لنجد نُصُبها المتألقة سليمة بين المقاهي الرثة والمعامل ، غبار بلدة أخرى .

في يوم الأحد ، انطلقنا مبكرين من ضريح آخر حَذاء حُرٍّ أزرق العينين ، سائرين من بيت معمودية مهجور الى آخر . هو تحدّث عن القانون والتاريخ والفرص الثانية . وبعد سنوات ثلاث ، ومن قلب ظلام كونراد : «طلاّبي هنا لا يؤمنون إلا بالثلاجات تهبط من السماء بالمظلاّت»... حاجٌّ آخر يبحث عن إزالة القذارة ـ يجد ، أخيراً ، أن ظله هو إياه نفسه . من سماء ستانلي فيل الخالية من الغيم تهبط المظلات . بوغة صنوبر شرير تنفتح في الريح . نحن ، جميعاً ، نموت تحت سماوات غريبة ، في موضع يسمى رافيّنا . سواءٌ ذكره الأطلس الحديث هكذا ، أو سمّاه سيدني ، أو كاتسانغاني ستانلي فيل سابقاً .

حياة متخيَّلة

- هذا الكتاب الأكثر تحضُّراً ، والمدوّن ببساطة وبهاء ، هو من كلاسيكيات عصرنا ، وسيظل على الدوام عملاً كلاسيكياً .

هيلين فريزل
« مجلة الكتاب الاسترالي »

- لقد أبدع الشيء النادر ، روايةً تطلب من القارىء ، ما تطلبه القصيدة منه ، اقتراباً وانتباهاً مفعماً بالخيال .

« أخبار الكتاب البريطاني »

- لقد جاء ديفيد معلوف بعملٍ ذي ذكاءٍ وخيالٍ غير اعتياديين .

كاثا بوليت
« نيويورك تايمز »

ديفيد معلوف

شاعر وروائي استراليّ . حصل ديفيد معلوف على جوائز أدبية عدة بينها جائزة باسكال في العام ١٩٨٨ ، وجائزة الكومونويلث للقصة في العام ١٩٩١ ، وجائزة فمينا إترانجيه الفرنسية لأفضل رواية أجنبية .



Bibliotheca Alexandrina
0401659

ISBN => 2-84305-118-5
EAN => 9782843051180